سركون بولص

عاصمة الأنفاس الأخيرة

@ketab_n
Follow Me
14.5.2016

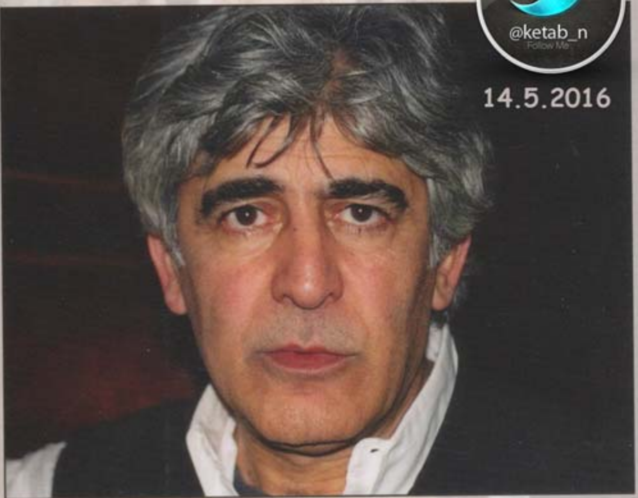

منشورات الجمل
قصص

سركون بولص

عاصمة الأنفاس الأخيرة

قصص

منشورات الجمل

Twitter: @ketab_n

سركون بولص، عاصمة الأنفاس الأخيرة، قصص

Twitter: @ketab_n

ولد سركون بولص عام ١٩٤٤، بالقرب من مدينة الحبانية - العراق، أقام منذ عام ١٩٦٩ في سان فرانسيسكو - الولايات المتحدة الأمريكية وتنقل بين دول عديدة، توفي ببرلين عام ٢٠٠٧. صدر له: **الوصول إلى مدينة أين**، شعر (منشورات سارق النار، أثينا ١٩٨٥)؛ **الحياة قرب الأكروبول**، شعر (دار توبقال، الدار البيضاء ١٩٨٨). صدر له عن منشورات الجمل: **الأول والتالي**، شعر (كولونيا، ١٩٩٢)؛ **حامل الفانوس في ليل الذئاب**، شعر (بيروت - كولونيا ١٩٩٦)؛ **إذا كنت نائماً في مركب نوح**، شعر (بيروت - كولونيا ١٩٩٨)؛ **اتيل عدنان: هناك**، شعر، ترجمة (بيروت - كولونيا ٢٠٠٠)؛ **عظمة أخرى لكلب القبيلة**، شعر (بيروت - بغداد ٢٠٠٨)؛ **جبران خليل جبران: النبي**، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠٠٨)؛ **الوصول إلى مدينة أين**، شعر (بيروت - كولونيا ٢٠٠٢)؛ **الحياة قرب الأكروبول**، شعر (بيروت - بغداد ٢٠٠٨)؛ **هو شي منه: يوميات في السجن**، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠١١). **و. هـ أودن: قصائد مختارة**، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠١٣)؛ **آلن غينسبرغ: عُواء وقصائد أخرى**، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠١٣)؛ **تيد هيوز**: رسائل عيد الميلاد وقصائد أخرى، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠١٣)؛ **و. س. ميروين: قصائد مختارة**، ترجمة (بيروت - بغداد ٢٠١٣).

سركون بولص: **عاصمة الأنفاس الأخيرة**، قصص، الطبعة الأولى
كافة حقوق النشر والاقتباس والترجمة
محفوظة لمنشورات الجمل، بيروت - بغداد ٢٠١٥
تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2015
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

Twitter: @ketab_n

عاصمة الأنفاس الأخيرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

منذ أن أخذه أبوه إلى المدينة ذات يوم، في سفرة قصيرة لحضور جنازة؛ من كركوك إلى القلب الكبير الأوردة؛ أرصفة يكاد يطالها سوط الحوذي الذي كانت عربته المزقزقة بصريرها العالي تنقلهما عبر أزقة طويلة في البتاويين إلى منزل عمّه الذي مات، تتشبث بمؤخرتها كلاب سائبة لاتخيفها فرقعة السوط الصافرة التي يكيلها الحوذي الهرم مائلاً إلى الخلف بحركة آلية من آونة إلى أخرى، بقدر ما تزيدها توقاً للطراد وتضاعف من علوّ وثوبها. . . . سوط الحوذي، وحصاناه الثقيلان يقرعان موسيقى صباحية رطبة على طرق قديمة من الحصباء، ومن حيث يجلس يونس إلى يسار أبيه كان يرى اللجام الذي تغطيه رغوة خضراء وكيف يحزّ فكّي الفرس اليسرى كلّما أدارت رأسها الضخم الطويل إلى الوراء قليلاً، متوجّسة، باتجاه النباح فتظهر عينها الكبيرة من وراء العصابة الجلدية المزخرفة بالمسامير والنقوش عاكسةً ظلال الشارع والبيوت المائلة كمرآة محدّبة رطبة بسائل لزج كالجلاتين، إلى أن تعيد رأسها إلى مكانه لسعة السوط الذي كان يعاجل بها الحوذي حصانيه بشكلٍ أرقّ، مصحوبةً بضجّة كان يطلقها لسانهُ قريبة من الوسوسة الصاخبة وفيها نوعٌ من التحبّب الخاص لا تفهمه إلاّ الخيول.

Twitter: @ketab_n

ثم سارا وحيدين في مدخل الزقاق، هو وأبوه، حاملين أكياسهما التي تحتوي على هدايا من الشموع، وقمع مخروطي كبير من السكّر في غلاف من الورق النيلي. لم ينس تلك العزلة المليئة بالوعود، عزلة الصباح التي لايعرفها الاّ حوذي نصف نائم، أو كلب هزيل واقف بقائمتين على برميل في داخله أمل، وعد، رائحة... بعد سنين كان عليه أن يهرب ويعود إليها، ليكون جسداً صامتاً يمضي ورأسه يرنّ بضجيج لايهدأ، كيقطينة لا تحتوي سوى بذورها بين المقاهي الغائصة في دخانها الأزرق، إلى حافة دجلة، على طول السكة الحديدية وراء سدّة كمب الكيلاني، يدخل أبواباً ويصعد إلى سطوح خالية الاّ من غسيل يجف في الشمس، ملاءات نظيفة خَلِقة فيها ثقوب واسعة ينسلّ منها النور القائظ في شهور الصيف، أقمطة اطفال، ملابس داخلية خشنة لعامل مكدود، والأسرّة التي ينامون فيها على السطوح... ثم يعود إلى الغرفة في بيت أم رؤوف. من هنا، في الطابق الثاني، كان بإمكانه أن يرى النهر عبر السقوف، ووراءه على الضفة الأخرى قصر حكومي ضخم محاط بعذوق النخيل الغبراء، وطيور لها لون التراب تصعد محلّقةً وتهبط بتكاسل كأن موجة القيظ تمدّ خيوطاً حارة مربوطة بأجنحتها، تشدها وترخيها... لكنّ يونس لا يكتفي بالنظر بل إنّه، في هذا الصباح الأخير، كان يحلم بأنّه يخلع حذاءه أولاً، ثم يخلع ملابسه كلّها إلاّ اللباس الداخلي، ويخطو دون وجل والحصى تعضّ أصابع قدميه الحافيتين، في الماء، وفي الصباح، وفي تلألؤ الصباح الذي يبثّ قشعريرة الشوق الغامض والتهور والسكون والكلام الداخلي، ومحاورة ما لا نهاية له من الصور التي لا منطق لها والاهتزاز لكلّ

Twitter: @ketab_n

خلجة وفكرة كأنّ مصير العالم يرتبط بكلّ خلجة وفكرة. وهكذا؛ يبثّ الصباح كالراديو حياته، في قلب يونس وأذنيه اللتين ترتجّان بوسوسة مائية وتيّارات تعبر بين فخذيه وتداعب خصيتيه كأنها أسماك صغيرةٌ تحاول أن توقظه لتشركه في لعبة صامتة يعرف بها النهر، هذا الذي سينزل إليه ناقماً في آخر صباح من تاريخ حياته الحافلة. . .

في تلك اللحظة الشائكة من ذلك الصباح الحاسم كان يقف دائخاً وسط الغرفة العليا، والباب المفتوح كقناعٍ أزيح إلى جانب يطلّ على الحياة شبه الغابيّة التي تخفق في النسيم الباكر الآتي من النهر ضمن جدران الحديقة المسوّرة في البيت الخلفي. . . صياح عصافير وصيحات أطفال، وحنفية تغرغر تحت شجرة كعنقٍ مقطوع لا يكفّ عن النزيف. كان يصغي بأذنٍ واحدة ويترك للأصوات أن تنزلق عن حافة ذهنه إلى الفضاء وهو يغسل وجهه ببطء ويوظّف ثلاث أصابع من يده اليمنى في مهمة فرك أسنانه بالملح، إذ كان قد نسي الفرشاة والمعجون في حقيبة صغيرة تركها عند أحد الأقرباء. رنّ جرسٌ بعيد وسمع صوت الطارق ينادي أحداً في بيت الجيران، ثم رأى الفتاة فجأةً. . .من أعلى، حيث يقف، كانت تبدو صغيرة: ١٢سنة، أو أقل. تقلّب في دواخه الصباحي برهة كفلّينة مشدودة بصنّارة ومن حيث يقف امام مغسلة الصفيح بجانب باب الغرفة، في الطارمة العالية ذات السقيفة، كانت انفراجات من فراغ في الكثافة النباتيّة تتيح له أن يميزّ الفتاة قليلاً، وإن كان يعرفها فقد كانت كلّ نهارٍ تقريباً، طيلة الأسبوع الماضي، تلعب أو تعمل شيئاً ما في الباحة الخلفية، بصحبة بنتٍ أخرى أو صبي صغير غالباً. . .

- نوزاد، نوزاد، كاكا. . .

Twitter: @ketab_n

بدأ صوت الطارق يضعف ويتّخذُ رنّة مخذولة كأنّه يشعل سيجارة بانتظار أن يُفتح له، معتاداً على التأخير. كانت عائلة كردية تزدحم في غرفتين طويلتين كالأروقة محشورتين بين بيت أم رؤوف ومبنى آخر مهجور في الجهة الثانية، على مدخل الزقاق. أتيح ليونس قبل أيام أن يرى البيت. في ذلك اليوم كان الزوار منذ الصباح الباكر قد أخذوا بالوفود في مواكب رافلة بالزينة، وخصوصاً النساء الكرديات في ثيابهن التقليدية المقصّبة، الثقيلة. يدخلن البيت الصغير تسبقهن غيمة غاشمة من العطور، حاملاتٍ بُقجاً وسلالاً مليئة بالهدايا والرجال يدخنون خارج البيت وبعضهم يتلكأ في الحديقة الخلفية بين الكراسي المصفوفة بانتظار الضيوف. بقيت الشمس تنعكس بحدّة على زنانير النساء العريضة المليئة بالفصوص وخناجر الرجال المدفونة في تلك السجاجيد الملفوفة حول أوساطهم حيث ترتاح أيديهم بالغريزة وهم يلغطون، حتّى وصل «آمورخان» العجوز، النحيل، الأجوف الخدين قبيل الضحى حاملاً زُرنته الذائعة الصيت من أقصى الشمال إلى أقصاه، يتبعه ابنه الفارع وطبله يتدلى أمامه. . . . نعم، عرس نوزاد: بقي الجيران حتّى الفجر يتفرّجون من السطوح على راقصي الدبكات، ومائدة العريسين العامرة بالفاكهة والملبّس والشربت. كان في الوسط سطل كبير من العرق القوي البيتي الصنع، فيه مغرفة خشبية ظلّت الأيدي تتداولها وكلّما فرغ السطل أتو بآخر. جلست أم رؤوف قريباً من العروس التي كانت صبيّة لوزيّة العينين لها وجهٌ مقمر بضّ وجديلتان كثّتان من الشعر الكستنائي، وشارك يونس في بعض الدبكات بعد أن أسهم في إنقاص مستوى العرق الفائح، في السطل. . . . غنّى

Twitter: @ketab_n

أحدهم وهو سكران محمرّ الوجه أغنية «كا بوكي ليلي» لمحمد الجزراوي ويده اليمنى تغطّي أذنه، ورقص العريس رقصة منفردة شاهراً خنجره في الهواء. بقي عدّة أطفال يجثمون كالنسانيس في الأشجار المزيّنة بالمصابيح وعلى السور، وانسلّ الكثيرون بعد الأكل إلى الخارج ليتحلّقوا حول سيّارة أحد الزوّار، يتسامرون ويدخّنون ويروون نكاتاً مفصّلة حول ليلة الدخلة. كانت سيارة نزّاحين تنبعث منها بقوّة رائحة الغائط اليابس وهي عبارة عن برميل كبير من الصفيح رُكّبَ على عربة بيك آب عُلِّقت في جوانبها الرفوش والمكانس. ميّز يونس وجوهاً خُيّلَ إليه أنّه رآها بين صفوف الأكراد الذين كانوا يجلسون أمام حديقة الأمّة في الباب الشرقي، تحت نصب الحرّية لجواد سليم في كلّ مساء وبين قدمي كلّ منهم صندوق خشبي لصبغ الأحذية مرصّع بمسامير نحاسية عريضة ومزود بعلب البُويا في الجانبين. . . كانوا نطفة من سيل لايكفُّ عن التدفق عبر جسور بغداد وينصبّ في صرائفها المنسيّة، قادماً من الشمال، وعائلة نَوزاد هاجرت من زاخو: لا يعرف حتّى الآن كم عدد أفرادها، لم يكن يرى غير الأطفال بين حين وآخر، والعروس التي كانت تذهب صباحاً أو تعود ظهراً مع أمرأة كردية ضخمة خمّن أنها أم العريس، حاملةً سلّة وهي تخفض عينيها بخَفر سائرة وراء المرأة بمسافة، وعيناها اللوزيتان تنضحان بنعمة خفية لا تعرفها إلا العذراء التي فقدت بكارتها حديثاً. . . لا عجب أن يتنحنح الطارق المجهول بصوت عالٍ ذي معنى، وينصرف. سمع ضحكته الحاسدة وتكهّن بانشغلات نَوْزاد البعيدة عن عالم الأحذية أو نزح «البواليع» في هذه الأيام.

Twitter: @ketab_n

لاحظ يونس أن طفلاً أشقر الرأس يجلس على درج من الإسمنت بالقرب من الفتاة. وتلكأت هذه، مستديرة حول نفسها بوجه متبرّم، لا تعرف ماذا تفعل. أنهى حلاقته أمام المرآة المعلقة في الطارمة ودخل الغرفة ليرتدي ملابسه فالساعة تجاوزت الحادية عشرة وعليه أن ينجز بضع مهامٍّ، بينها المرور ببيت قريبه لالتقاط حقيبته الأخرى. . . كان قد وضّب أشياءه القليلة في الليلة الماضية وحشرها في حقيبة الكتف التي كانت على السرير، وأضاف إليها الآن أدوات حلاقته التي جفّفها ووضعها في كيس من النايلون.

جلس على السرير بعد أن التقط علبة «الروثمان» من المنضدة الطويلة التي كانت تزدحم بكتب رؤوف وأوراقه قبالة السرير: غرفة ضيقة طولانية فيها نافذة صغيرة تطلّ على الزقاق، ومع ذلك كم من الحميمية كان يحسّ بها اليوم، في هذا الصباح بالذات، كدفق دافئ ينبجس بين أضلاعه كلّما جال بنظراته في زواياها المليئة بصناديق صغيرة من الكارتون عليها ماركات شركات الصابون، أو أخرى خشبية تحمل ماركة «معمل الحدباء» للخمور، أو بيرة «فريدة». . . تحتوي كتباً وجرائد قديمة على الأغلب، ومن فرجات بعضها تطلّ أطالس وأوراق امتحانات. . . غرفة رؤوف: أسبوع واحد قضاه هنا ومع ذلك يغمره هذا السيل الكثيف من الأُلفة الناقصة، والحيرة أيضاً. . . الحيرة لأنه كان واعياً على الدوام بأنّه عاجزٌ عن وضع يده على سرّ صديقه الغائب وهو يتأمل، في الليل غالباً عندما يعود متأخراً، أو في الصباح عندما يستيقظ ويظلّ راقداً في السرير، هذه الجدران الحافلة بمؤشرات كان يحسّ بالغريزة أنها ستقوده إلى قلب ذلك السر. . .

Twitter: @ketab_n

تصوّر وجه صديقه الناحل المفرغ من الحيويّة بعد سلسلة من الاعتقالات والتدريس في قرى قاحلة، وشعره المفروق على صلعة مبكّرة (كان يعرف من أحاديث أصدقاء آخرين أنها نتيجة نوع من التيفوس أصيب به في أحد السجون). بينما كان يدخّن ويمر بعينيه للمرة الأخيرة على الجدار الذي يعلو منضدة المكتب: في المركز، بمواجهة الجالس على الكرسي، كانت صورة فوتوغرافية بالأبيض والأسود من تلك الصور التي تعرض في واجهات السينما، لوجه الممرّضة الصارخة ذات العوينات المهشمة في فيلم «بوتمكين» لآيزنستاين. حدّق في فمها المفتوح على وسعه كأنه يتوقع أن تنطلق منه صرخة حقيقية، وكان يسترجع مشاهد من الفيلم الذي شاهده مرتين، مجّاناً، في معهد الثقافة السوفيتي بشارع أبي نواس كلّما رأى الصورة. وهناك أيضاً في أعلى الجدار، صورة لمعروف الرصافي وعلى رأسه سدارة تركية، وأخرى للسيّاب يضحك بطريقة تجعل أسنانه تطغى على بقية وجهه النحيف. لكن الصورة التي تسحره بقوة كانت في إطار خشبي صغير معلّقة تحت صورة الممرّضة الصارخة، مصفرّة اللون مأخوذة بكاميرا رخيصة أو عتيقة الطراز؛ هنا كان رؤوف يقف واجماً وهو يبتسم ابتسامة مريضة، مع مجموعة من السجناء بالبيجامات أمام شرشف معلّق بحبال الغسيل، على منصّة خشبية عالية. كان قد حدثه عدة مرّات عن أيامه في «نقرة السلمان» حيث كانوا يقدمون مسرحيات مرتجلة بين حين وآخر في ذلك المعتقل الصحراوي الذي كان بمثابة محطة يمرّ بها الحزبيون من جيل إلى آخر، وأكثرهم شعراء وفنانون؛ ميّز في الصورة رشيد، خريج معهد الفنون قسم التمثيل الذي كان قد التقى به بضع مرات،

Twitter: @ketab_n

منذ وقت قريب، ثمّ اختفى من بغداد وقيل انه هرب إلى الشمال. عرض عليه رؤوف أن يبقى مدة في غرفته لأنه كان سيسافر إلى الرمادي هو أيضاً حيث كان، الآن، يدرّس التاريخ والجغرافيا في إحدى المدارس المتوسطة. معلّم حريص، رؤوف. كان صارماً في عاداته كأنه تعلّم دروساً خفيّة في الصمت. لا يتداول بالحديث السائب الذي كان أكثر من يعرفهم يهدر به وقته في المقاهي. ذهب معه يونس بضع مرّات إلى مخازن «أوروزدي باك»[١] في شارع الرشيد، ورآه يشتري اسطوانتين من الموسيقى الكلاسيكية بمبالغ باهظة وكان يعرف فقر رؤوف. وفي «بار الخيّام» قضيا أمسية كاملة يشربان بيرة «فريدة». كان البار مكيّف الهواء يهبّ من فتحات مشبّكة في سقفه تيّارٌ صاخب من الهواء الفاتر يرفل فيه قميصه الأبيض الخفيف وترتفع فيه شعراتُ رأسه القليلة التي كان يصفّها بشكل طولاني على عرض صلعته المليئة بالبثور. في تلك المرة وصلا إلى حدّ أن سحب رؤوف من جيب بنطلونه الخلفي ورقتين وأخذ يقرأ له قصيدة بعد مقدّمة مطوّلة مليئة بالأعذار. قرأ بصوت بطيء يكاد يكون همساً وهو يتلفّت شزراً إلى المنضدة القريبة، حريصاً على ألاّ يصل صوته إلى أبعد من أذني يونس.

كان يقرّب منه وجهه إلى حد أن تلبطه أنفاسه الخاثرة بالبيرة ويحدّق في عينيه من وراء نظارته السميكة بحدّة بينما يشدّ ردن قميصه بيده اليسرى قابضاً على ذراعه أحياناً بأصابعه الصلبة عند

---

(١) أورزدي باك: متجر للتسوق كان يقع في شارع الرشيد ببغداد، وهو أقدم نموذج للمولات الحديثة.

Twitter: @ketab_n

نهاية كل مقطع. . . على أنّه كان ينغلق كالصدَفة إذا مرَّ بطاولتهم أحد المعارف ويترك للحديث أن ينساب بدونه كأنه غير حاضر وإن كانت عيناه تجولان بين الطاولات الأخرى خفيةً ويراه يونس يتقلص بشكل واضح كلما لمح شخصية مشبوهة تدخل البار. كان يعرف رجال الأمن ومخبريهم من بعيد، ويكاد يكون قادراً على شمّ رائحة معيّنة تنبعث منهم كما كان يقول، على مدار مائة متر.

- كالسلوقي. . .

- وربّ السلوقي، إنها حامضة قليلاً كغائط السجين المضرب عن الطعام ومسمومة «كاللبلبي»[٢] الخائس.

على أن ضربة الإدراك الحقيقية التي أحسّ بها يونس تمزّق صدره وبقيت تنغر فيه كلّما فكر بصديقه رؤوف، أتت ذات أمسية غبراء من تلك الأماسي المعلّقة بين الملل والاحتضار، عندما كانت تغلّف بغداد غشاوة دبقة من بقايا القيظ، وتدور الحشود بالغريزة كما تفعل الماشية القلقة بحثاً عن النسائم القليلة النادرة التي تهبّ على الوجوه آتية من جهة النهر. في تلك الأمسية رآه يشرب وحيداً في بارٍ صغير محشور بين دارين للسينما في زُقاق قريب من «حديقة الأمّة» يرتاده العمّال والحمّالون والفقراء لرخصه، من خلف زجاجة قذرة مضبّبة باللهاث والدبق فيها كسورٌ مغطاة بورق المقوّى وقطع من الخيش، وكاد يقف عندما لمح صورته الجانبية الأليفة لكنه وجد نفسه يشيح قليلاً وهو يمرّ بدافع قوي من الشعور بالتطفّل كأنه يطلّ على أعماق جريحة دون أن يكون مخوّلاً بذلك الحقّ. لكنه في تلك

---

(٢) اللبلبي بالمحكية العراقية وتعني: الحمص المسلوق.

Twitter: @ketab_n

النظرة الخاطفة التي انصبّ فيها وعيه كاملاً فجأةً، كأن شريطاً مرتجفاً من العوالم ينداح في رأسه ليجعله يصحو بقوة، رأى أعماق البار المعتمة عبر طبقات لولبية من الدخان وفيها وجوه مكدودة عاكفة على الطاولات الخشبية الصغيرة. وفي المقدمة، لصق الحاجز الزجاجي، ظهر رؤوف المحدودب، ويده المرفوعة بكأس العرق قبل أن يفرغها في جوفه بحركة قتيلة!!! . لمح قسماته تشمئز بلذعة الشراب وأصابعه تمتد بشكل ضائع لتلتقط ملعقة من صحن «الجاجيك»[٣] كأنه السّم ثم يتهدّل رأسه على صدره. . . بقي يونس يسير.

سحب الآن سيجارة جديدة من علبة الروثمان بعد أن أطفأ الأخرى في المنفضة. ومن حيث يستلقي في السرير بالعرض مستنداً بظهره إلى الحائط، رأى كارتون السجائر حيث تركه فوق الطاولة المواجهة، وسرَت في أصابع يده التي تحمل السيجارة رعدة خفيفة؛ فنهض للتوّ بنوع من التهوّر وأخذ الكارتون الأزرق ليضيفه إلى الحقيبة المفتوحة بجانبه في السرير؛ تحسسه بأصابع نهمة ثم تطلّع إلى قعره: كانت فيه علبة واحدة. كرمشه بقوّة بعد أن أنتشل منه العلبة الأخيرة وقد سيطر عليه هاجس المهمّة الأخرى التي كان يحاول أن يتفادى التفكير بها طيلة هذا الصباح. . . تطلّع إلى ساعته بشكلٍ خاطف وقد انهار في داخله ذلك السدّ المنيع من اللامبالاة الذي كان قد بناه طبقة طبقة في الأيام الأخيرة بعد قراره الرحيل، واستبدّ به شعور بالغبن والشراسة كان يداهمه كلما فكر بصاحبة الهديّة.

---

(٣) الجاجيك: سلطة اللبن بالخيار.

Twitter: @ketab_n

غلبت عليه صورتها الآن وهي تموّنه بالسجائر كأنها تربطه إليها بتلك الخيوط الزرق المتموجة من الدخان وعلى وجهها ابتسامة عارفة. . . كانت الساعة تجاوزت الثانية عشرة وعليه أن يتحرك، لكنه فضّل أن يستسلم لوطأة التأخير. كانت قد قالت: «ليست هناك مشكلة. أنت الذي تفكر بالمشاكل، ليست هناك مشكلة واحدة» بينما تدسّ كارتون السجائر بين ذراعيه كأنها تموّنه بالذخيرة للوصول إلى النسيان. . . لكن «سمريّة» لم تكن تعرف أن السجائر لا تكفي، وأن خيوط الدخان التي تتلاشى في الهواء بغمضة عين لاتملك أيّة متانة، أو لعلّ ابتسامتها العارفة كانت تشير إلى هذا التناقض بالذات. . . ساقُها المكتنزة التي كانت في يده، لم يكن يريد غير ذلك. وفي لحظة مثل تلك، كومة ملابسها على أرضيّة الغرفة، وفكّر بلحمها. يجب أن أبدأ من هناك. متأكد من أنني سألتقط الخيطَ ثانيةً إذا بدأت من هناك. في غرفتها التي كان قد بدأ يحسّ بأن علاقة من نوع ما قد تألّفت بينه وبينها. هل يمكن؟ بالتأكيد. علاقة. تلك اللحظات الصغيرة المفقودة التي كانت تضيء فيها وسط السرير يدها الرخصة أو جزء من ظهرها العاري. لكن يده لا تصلها كأنها تسبح بعيداً وهو في إثرها، سمكةٌ طائشة، مخلوق شيطانيّ ساحر يقوده ويسبح، يسبح ويجرّه إلى حيث مأواه الحقيقي. كان يعرف أنه سيبقى حائماً على المدخل دون أن يراها. أدرك هذا في كلّ مرة. وخصوصاً ليلة البارحة عندما كان ينبني فيه، منذ بداية النهار، إحساسٌ داهمٌ بالفشل وهو يتيه بين المقاهي والمحلات التجاريّة والسينمات في شارع الرشيد كأنّه يودع هذه المدينة التي قضى فيها شهوراً ثلاثة لم تكن سوى حُلم، وقادته

Twitter: @ketab_n

قدماه إلى غرفة سمريّة. كان يعرف الطريق، وفي كلّ مرّة كان يخرج من الزحام الكثيف في الباب الشرقي ويزحف بالغريزة وهو سكران باتجاه السدّة الترابية العالية في أقصى كمب الكيلاني، يرشده خزّان المياه الكبير الذي ينتصب في مدخل الكمب كبيضة رخّ هائلة من الألمنيوم على أرجل طويلة من الحديد. لكنها هذه المرة لم تكن في البيت. سأل العجوز الآشورية الخرساء التي تقطن الغرفة المجاورة عندما فتحت له الباب فأشارت بيديها الاثنتين وهما متصالبتان إلى البعيد، أمام وجهها وعبر كتفيها مرّات عدّة، ثم نفضتهما أمامها بيأس لتفهمه أن سمريّة ذهبت في مهمة إلى مكان ما ولن تعود قبل وقت طويل.

كان يعرف أين، وفي أيّة مهمة. قضى تلك الليلة يهيم حول بيتها قرب كنيسة الآشوريين لعلّه يراها عندما تعود، ثم انتهى وراء السدّة التي كانت تنوس وراءها نجومٌ حاشدة كالعناقيد تتدلى في العراء الخالي حتى تكاد تمسُّ الأرض، حيث جلس على السكة الحديدية ودخن سيجارة. كان قطار ليليّ بطيء يمرّ أحياناً فيصغيان إلى ضجيجه في السرير دون كلام، وترتجف له الغرفة المظلمة بشكل خفيف: وذات مرّة في الأسبوع الأول تطلّع إلى الطاولة المحاذية للسرير عندما أخذت قناني الويسكي والكونياك تقرقع بشكل صاخب وقد سَرت فيها رعدة من القطار العابر، وأسودّ تفكيره بالحقيقة التي كان يحيد عنها في كلّ مرّة، وتحاول سمريّة باستماتة أن تجعله ينساها. لكن كارتونات السجائر وقناني الشراب كانت قد دلّته بشكل لا مردّ له. كانت في الخامسة والعشرين، تكبره بعامين، هربت إلى بغداد بعد أن مات زوجها أنطون تحت التعذيب

Twitter: @ketab_n

على أيدي «الحرس القومي»[٤] في كركوك. يعرف القصّة من هنا وهناك: سردت عليه هي تفاصيل معيّنة من جانب، وخمّن هو الجوانب الأخرى. لكن الذعر في عينيها كان أبلغ، فقد عرف أيضاً أنّها اغتُصبت وأنّها كانت السبب في اعتقال زوجها، فمعاون الحرس القومي الذي كان يحوم حولها منذ أن رآها ذات يوم، دَبّر اللازم للتخلص من زوجها بحجّة أنّه شيوعي ثم طرق عليها الباب ذات ليلة.

لفح وجهه نسيمٌ فاتر له رائحة الطين وأحسَّ بدمدمة خفية في قضيب السكة البارد تحت إليتيه فنهض من مكانه وهو يفكّر بأيام طفولته عندما كان يضع أذنه على السكة ليصغي إلى ذلك الأنين السرّي الخافت في قلب الحديد، حتى يسمع تلك الدمدمة الخفيّة فيعرف أن القطار البعيد موشك على القدوم. ثم سار متعثراً باتجاه النهر ليقطع شارع أبي نواس وغايته غرفة رؤوف القريبة من نصب «الجندي المجهول». تنفّس ملء رئتيه هواء النهر المشبع برطوبة ليلية تمتزج بروائح خشب الرمّان المحترق وامتلأ أنفه ببقايا رائحة «المسگوف»[٥] المشوي، لكن النُدل في أكثر المقاهي الممتدة على طول دجلة كانوا يكوّمون الكراسي على بعضها في أهرام صغيرة متفرّقة وهم يتثاءبون، وأكثر المصابيح الملوّنة المعلّقة بمئاتها على العوارض الخشبية كانت مطفأة... أفرادٌ قلّة يبرزون فجأةً من مدخل زقاق يقود إلى الماء، ممن لفظتهم البارات المغلقة أو سينما

(٤) الحرس القومي: ميلشيا مسلحة كانت تابعة لحزب البعث في الستينيات.
(٥) المسگوف: السمك المشوي بطريقة خاصة في العراق.

Twitter: @ketab_n

قريبة، وصمتٌ تخترقه وشوشة النهر الجاري إلى يمينه. . . تطلّع إلى النجوم التي تنفتح فوق بغداد النائمة كالعيون مستسلماً لموجة الراحة التي اكتسحه وهو يصغي إلى أصداء طفيفة غامضة تصله من بعيد لتختلط يالأصداء التائهة التي لاتكفّ عن التردّد في رأسه وهو يسير بآليّة كأنّه مسيّر بحذائه، حتى وجد نفسه بالقرب من نصب «الجندي المجهول». كانت الأصداء قد قويت فجأة وانقلبت إلى صليلٍ معدني عارم، وثمَّ قامات تقف متجمّعة في جمهرات صغيرة على رصيفي شارع السعدون بالبيجامات وثياب النوم تراقب بصمت وبأنفاس مكتومة بينما طابور من الدبّابات والسيّارات المصفّحة يعبر ببطء إلى قلب المدينة. لم يكن أحدٌ يتكلم أو يدخّن وكان الصمت أعمق حتى وجنازير الدبّابات تطحنه بصريرها. وبين حين وآخر يظهر وجه جندي تحت بيريّة رخوة أو خوذة ذات سمّاعات كبيرة تغطي أذنيه، في فوّهة دبّابة أو خلف مدفع رشّاش منصوب على مصفّحة.

رقد في تلك الليلة على سرير في غرفة رؤوف دون أن ينام حتى الفجر، في فمه بُواخ التدخين وفي رأسه تلك الأصداء العارمة المختلطة التي بدأت منذ الآن، في لحظات الفجر الأخيرة تتوحد وتلتئم بأفكاره المتعلّقة برحيله وباليوم التالي.

ذهب إلى النافذة فأغلق درفتيها بإحكام. إنقطعت أصوات الباعة العابرين من حين إلى آخر في الزقاق، ينادون على بضائعهم بأصوات عالية رتيبة. وخفّ ضجيج سيّارة كان صاحبها يحاول أن يشغّلها دون فائدة. كان شابٌ يرتدي البيجاما والنعل يسبّ ويلعن ضاحكاً وهو يحاول أن يشغّل سيّارة الفوكسهول الإنكليزية العتيقة

Twitter: @ketab_n

السوداء، ورجلٌ عجوز يلبس دشداشة يدفعها من الوراء. سمع المحرّك الصاخب مرّات عدّة ورأى السيّارة تقفز قفزات ضفدعيّة كبيرة ثم تنطلق وهي تضرّط وتطلق سحابة من الدخان، لكنها مالبثت أن توقفت ثانية في نهاية الزقاق.

إلى يساره كانت آلة الفونوغراف، في الزاوية المصاقبة للسرير، تقبع على طاولة صغيرة وتحتها صفّان من الأسطوانات في أغلفتها البرّاقة، سوى واحدة كانت ترقد على الصفّ الأعلى وفوقها قطعة جلد مخمليّة تستعمل لتنظيف الأسطوانات. التقطها بعناية وقرأ على عرض الغلاف: «طائر النار» لسترافنزكي. تأمل صورة الموسيقار الضئيل يحمل عصا المايسترو. ثم أدرك لخفّته أنه فارغ وتطلّع فرأى الأسطوانة في الفونوغراف. فتح غطاءه الزجاجي ودفع بإبهامه مؤشر الـ Start فارتفعت اليد الحاملة للإبرة. لحظة، والتقطت الإبرة مجراها فبدأت بينها وبين الأسطوانة علاقة حميمة من الدوائر: وعلا في الغرفة حفيف أوركسترا يخترقه صوت الوتريات فانسلّ من الزاوية إلى وسط الغرفة ببطء محاذراً أن يصطدم بالطاولة وحمولتها الهشّة وهو يصغي إلى آخر الأصوات التي اختار أن يسمعها رؤوف.

«لستُ مشكلة. أنت الذي تجعل من الأمر مشكلة. ولا يمكنك أن تعرف ما أريد».

«أنت بغيّ ولا أحتاج إلى التفكير كثيراً لأحزر ما تريدين».

عندما حاولت أن تصفعه قبض على يدها المرفوعة وأبقاها عالياً في الهواء محدّقاً في عينيها اللتين كانتا تشعّان بالغضب وتبعثان بالبريق، مفتوحتين على وسعهما دون أن تطرفا فلم يعد يفكّر وهو قابض على يدها التي بدأت بالارتخاء مشغولاً بعالم

Twitter: @ketab_n

عينيها اللتين بدأتا تغتسلان من الداخل بدموع مقهورة وكان هذا ما يريد. لم تعد به حاجة للكلام وقد استسلم كالغريق لبحر من الهواجس، ولم يرد أن ينقطع الخيط المتوتر الذي كان يتدلى إلى أعماقها سابحاً بينهما في الهواء...

ثم أنزل يدها قابضاً على أصابعها التي بدأ يمسّدها برقّة فسحبتها من يده بغيظ واستدارت عنه فجذبها من شعرها وتلاحما. وَلَجها وهي تتظاهر بأنها تمانع لكنها في نفس الوقت توحي بأنها قابلة للكسر، وتوحي بذلك أيضاً كأنها تُكرر اغتصابها في كلّ مرّة. حين استسلمت كانت بالعكس، أكثر حرارة وحميمية وعنفاً إلى حد فوجىء به ولم يستطع أن يتحمل طويلاً فأطلق لنفسه العنان وفاض فيها كالنهر ساقطاً برأسه أخيراً على ثدييها النافرين الكبيرين، حتى حانت لحظة ذهابها إلى الحمّام فأزاحته عنها بإحدى يديها وتطلع إليها تنهض فوقه فرأى بصمات يديه الوردية على لحمها الأسمر البض بوضوح وانطباعة ساعته في ثديها الأيمن حيث كانت يده تستريح وقد نسي، لشدّة تلهّفه، أن ينزع الساعة من رسغه...

حمل حقيبته إلى الطارمة وجلس هناك لحظة على المصطبة الخشبية التي تواجه الحديقة الخلفية ثم نهض تاركاً حقيبته على المصطبة متطلّعاً إلى الأشجار التي كانت ما تزال تحمل بعض الأشرطة من مخلفات عرس «نوزاد» وتتدلى من بعض أغصانها أسلاك كهربائية مثقلة بالمصابيح الملوّنة كعناقيد من الفاكهة الغريبة. لكن حفيف الوتريّات الذي كان يتدفق تحت لمسة الإبرة، أرشده إلى الفتاة الصغيرة التي كانت ماتزال في الحديقة، واقفة لصقَ جدار، منشغلة. ثم رآها تمشي مترنّحة كأنما في الحلم ووقفت الآن

Twitter: @ketab_n

مباشرة فوق الطفل الذي كان راكعاً على الأرض بحيث إن رأسه الأشقر كان يبدو، وسط فخذيها، كثمرة ذهبية كبيرة تتدلى من أسفل بطنها. بدأت الصبيّة تضحك في وجه الطفل الذي كان، كما يبدو، يطالبها بشيء ما. فجأةً أدارت إليه ظهرها، ورفعت ثوبها بيديها حتى منتصف ظهرها بحيث كشف عن أعلى ردفيها العاريين وبداية عمودها الفقري. أذهلته الحركة ليس لأنها غير متوقّعة بل لأن الفتاة قامت بها في وجه الطفل تحت إلحاح كان يتألف في داخلها منذ البداية. ولأنها كانت حركة أزاحت براءة الفتاة للحظة واحدة وألقت بها إلى جانب: قوّست ركبتيها بشكل هزليّ وماجن في نفس الوقت دافعة بحوضها إلى الوراء وهي تدير رأسها نحو الطفل بوجه تمتزج فيه السخرية بالشغب وبالشهوة. ومع نهوض الطفل الذي طارد أخته نحو المدخل، أخذت الإبرة تحشرج. تركها تدور قليلاً في خطّ الأسطوانة الأخيرة. ثم سار متثاقلاً فأغلق غطاء الفونوغراف وألقى نظرة أخيرة على الغرفة قبل أن يردّ الباب خلفه ويلتقط حقيبته من المصطبة وينزل الدرج.

(نُشرت في فراديس، العدد ٣، ١٩٩٢، كولونيا - ألمانيا)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وغمرتني اليقظة كالماء

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يتحرك تحت غطائه، وفجأة ينهض من نومه يرتدي ملابسه ويخرج. أسمع صوت خروجه، وباب يُغلق. تتردَّدُ خطواتهُ أسفلَ النافذة، ومن الخارج تتدفق أصوات ضعيفة لا تلبث أن تتميز: مطر. وأنهض بدوري، فأشعل مصباح الغرفة وأجلس في أحد الكراسي. بعد وقت طويل أسمع صوته وهو يصعد الدرج، ويدخل فيدور قليلاً حول المنضدة. إنه ينتظر صوتي.

وقبل كل شيء آخر، أخذت أشم رائحة البلل من ثيابه. رائحة الصوف والخارج. - رجعت؟

- لم يُجِبْ. نظرتُ إليه. نهضت فجأة.

وحاولت أن أتظاهر بأنني لم أرَ شيئاً. ولكنه أخذ ينشج فلم أستطع أن أتفاداه، وكنت قد قررت أن أنام وأتركه في يقظته. كانت يداه على المنضدة، وإذ كان ينتحب في نباح فجائي متقطّع كانت المنضدة تهتزُّ، ويبدو كأنَّ الخشب هو الذي يبكي. وبدت يداه في الضوء، فجأة. رأيت ظهره الضيق أيضاً، وغمرتني اليقظة كالماء. فأخذت أنظر إليه من جديد. وتأكدت من أن النوم زايلني، وكان الجلد المحيط بعينيّ قد استرخى وتخدّر من نقص الراحة، وفي جسمي حاجة غامضة للجهد. ولكنه هو بقيَ يهتز عشر دقائق،

Twitter: @ketab_n

ومخط أنفه ونظر إلى الوراء بعينين مفتوحتين. لم يكن هناك أحد غيري وغيره. والغرفة.

كان الأثاث عارياً إلا من الضوء. وانفجر:

- لقد تأخرت. تأخرت!

- ليس هناك ما تتأخر عنه. هل ستسافر؟

- لا. - شهق. - تأخرت طيلة حياتي.

نشيج. إستمر المطر. وعيناه مفتوحتان ودامعتان بلا حركة ثابتة، كعيني طفل، كبيضتين نيئتين ترجرجان في قناع. إنه يؤذي.

- الساعة الثالثة. لم يأتك الندم إلا الآن!

قلت بغيظ، وكان على وجهي تعبير مهمل، كما أعرف:

نظيف وطبيعي في حالة كهذه. وهمهَم:

- لا أدري لم هربت على كل حال.

- من البيت؟

- وإلى هذه المدينة القذرة.

وردّد بضعف: - هذه المدينة القذرة جداً.

واستيقظ جسده الصحي الذي كان البكاء قد غلفّه بنوع من الهمود المؤقت. وتشجنت أصابعه فأضحت مجرد بروزات منهمكة في التهام قبضته تحت تأثير الغضب. ولكنه غضب في الهواء. وبلا هدف. وسينفد بعد قليل. كان أمامي. ورحت أحيطه بنظري وكنا ليليين. والمطر كان يُنقص من واقعية الجو: الصوف الشفاف النافذ من الخارج. وحتى خلف الزجاج، الذي يبين من داخل الغرفة وكأنه حاجز من الماء بيننا وبين الليل، كانت حركة سائلة تمتزج في

Twitter: @ketab_n

الخارج بالظلام. وأقنعنا الضوء الذي كان يتشرد في الغرفة مؤقتاً. بأننا بعيدان عن كل شيء آخر وأننا نستطيع أن نتكلم بصوت عالٍ في الساعة الثالثة صباحاً. ولكنني على حين غرَّة نهضت. وانسللت من السرير. عرفت إنه يشتمني بصمت. حقه، كان قد انفتح ولم يكن يريد أن يغلق نفسه بسهولة.

بالنسبة له كانت مناسبة جديدة. كانت لحظة دهشة، وتثمين، تجاوب متوقع وقد حاولت أن أغلقها وأطفئ يقظته. شتمني بصمت حتى نام، أعرف ذلك.

قررنا أن نخرج معاً في الصباح، كان يوم عطلة، وغسلت وجهي بعناية وأنا أنتظر. واستيقظ. بعد أن غسل وجهه، نظر من النافذة. وأزعجه النظر من خلال الزجاج. ففتح النافذة ومد رأسه إلى الخارج. إستنشق بقوة. ولم يقل شيئاً. كنت أنا أيضاً أستنشق، ولكن رائحة الأنقاض التي كانت تخلفها كل ليل في داخلي رائحة الأحشاء الفارغة والأسنان المصمغة بالحلم. وخرجنا. وصلنا إلى مقهى.

قدّم لنا الشاي رجلٌ ضخمٌ ذو وجه مشوّه بالجدري. وانحنت يداه العريضتان على المنضدة ثم ابتعدنا. شربت جرعة. وذهب الرجل إلى مقدمة المقهى، يستطلع الشارع بكآبة من وراء الزجاج ودخل إلى جوف المقهى خطاف صغير يطير ببراعة. وامتزج صوته الجميل بالصمت الذي كان يحتلُّ المقهى بشكل راسخ. وفي خروجه كان الخطاف يلمس أصابع اليد الكبيرة المتدلية من أسفل ذراع الرجل اليمنى. رأيت كتفيه تهتزان قليلاً. وراقبته جيداً فعرفت بعد قليل. لدهشتي. إنه يبكي. ولا بد أن هناك سبباً لذلك. بالطبع

Twitter: @ketab_n

أدهشني الأمر قليلاً. وخشيت أن يراه أحد غيري. كان الرجل يائساً بالتأكيد.

إنتظرت بصبر ولكن الخطاف لم يظهر مرة أخرى لا بد إنه ذهب إلى مقهى آخر. كان طائر من هذا النوع قد بنى لعائلته عشاً ذات مرة في مرحاض عام لم يميز الحيوان المسكين المقدس مكانه. أو إنه لم يكن هناك اختلاف بالنسبة له. وكان يغني وهو يطير بنشاط فوق فوهة المرحاض. كما أتذكر. ولكن لا. إلى نهر إلى نهر. طبعاً لن يذهب خطاف نظيف كهذا إلا إلى نهر. ويغني هناك مدهوشاً بالماء. أخذتْ كتفا الرجل تهتزان الآن بقوة أكثر كأنهما على وشك الانهيار أو كأنَّ شيئاً يخضّ الرجل الضخم من الداخل ويجعله يفرغ نفسه على الأرض. وارتبتُ في أن يكون أدمون (الذي كان يتثاءب ويحاول بغيظ أن يتخلص من آثار النوم) قد لحظَهُ. لذلك حاولت استدراجه إلى الحديث.

- ماذا حدث البارحة؟

فنظر إليّ بعدم اهتمام. وهمس مقترحاً:

- أريد أن أذهب إلى فلم صباحي.

- ربما ذهبت معك. ولكن، التنزه.

ولكنه قال فجأة:

- أُنظر.

ونهض. ذهب نحو صاحب المقهى ونظر إليه بوجه محايد. لم أكن أرى وجه الرجل، بل مؤخرة رأسه. وسأله أدمون:

- عمي، هل أنت بحاجة...

وتردد.

Twitter: @ketab_n

- إذا كانت عندك أي مشكلة.

ضحك الرجل ضحكة يائسة مليئة بكبرياء شعبية، وقال مازحاً وهو يشرق بدموعه الشريفة:

- لا إبني. لا «ودَاعْتَك»[1]

وأخذ يكرر كلمته بكآبة:

- لا ودَاعْتَك. لا ودَاعْتَك.

ولوت الإبتسامة وجهه المشوّه بالجدري فبدأ كأنه يلف وجهه بجورب نسائي (كما رأيت رجلاً برجوازياً يفعل ذلك مرة أثناء مسابقة تنكّرية في حفلة رأس السنة، وكان الرجل البرجوازي يحاول تقليد شحاذ).

في الطريق. قلت بلهجة خاطفة:

- أنت أيضاً كنت تبكي البارحة.

- متى؟

- البارحة.

ورأيت وجهه يزوغ عني.

لا تراوغ، في الليل.

وضحكتُ في وجهه ضحكة تفاهم. ولكنه بقي متصلباً.

- وأنت.

وإنتظر. ثم قال:

- أعتقد أنك ستبكي في فراشك. إذا افترضنا أنك بكيت.

- ممكن، ولكن صدقني أنني حسدتك قبل قليل.

---

(١) ودَاعْتَكْ باللهجة العراقية وتعني: وحياتك.

Twitter: @ketab_n

إلتفتَ إلي. كان يسير بسرعة برجليه الطويلتين.

وأضفتُ:

- مع صاحب المقهى أنت شخص مباشر، وقد عبّرت عن شعورك بالفعل رأساً، ولم تطوه مثلي. هذا ما أفكر به.

- ماذا تنتظر إذن!

ورأيت في عينيه ازدراء فجائياً لشيء ماء. وفي أثناء النزهة استعدنا صورة وجهه وهو ينتحب في الليلة الماضية، وظهر غريباً الآن عن ذلك وكأنه شيء لم يحدث. كان يسير بخطوات ثابتة ويقفز أحياناً ويداه في جيب معطفه القصير عندما يصادف بركة ماء. وفي الأغلب كان يسير مرفوع الوجه لا يأبه للسيارات التي كانت تخوض فضاء الشارع وتسبب بأصواتها الداخلية المتمزقة تموّجاً في هدوء المكان. وإستدار إدمون يساراً فجعلنا نواجه بذلك النهر. وقال:

- لنهبط.

واجتاز سياجاً صغيراً من الخشب ثم صعد فوق تل صغير من الكراسي المكوّمة فوق بعضها. كان مقهى صيفياً مقفراً. ونزل أخيراً إلى حافة الماء. تبعته.

- لنصعد على القارب.

وكانت هناك صقالة تؤدي إلى قارب كبير يشبه التابوت.

- إدمون، إنتظر.

وبلغته. كان يقف في أعلى الصقالة.

- ماذا تريد أن تفعل؟

فقال للحال كأنه كان ينتظر سؤالي:

Twitter: @ketab_n

- لقد جئت هنا الليلة أمس. وأضاف:

- لجأت إلى هذا القارب. من المطر.

وضحك متحفزاً. بتحد.

- هل ستصعد؟

وجدت نفسي أسأله بلا إرادة: - لماذا؟

إلتقطت عيناي، في تلك اللحظة، هذا المنظر: أسفل الجسر قطعة من سطح النهر تتألق فجاة تحت الشمس كحراشف سمكة ويزيد من تألّقها الظل الأخضر العميق الذي يعيش تحت دنكات الجسر ويعطي إحساساً بعيداً بالبرد، وبدأ القارب وهو يتحرّك حركة ثملة. ثم رأيت الماء، وخطفت بصري انعكاسة مفاجئة من الشاطئ الآخر لعلّها كانت سيارة تخرج إلى الشمس فجأة، وسحبت نظري إلى أسفل قدمي. أعشتني إنعكاسات الماء وأصواته.

- ستأتي أم لا؟

كان الآن يتجوّل في سطح القارب الكبير وهو يدخّن. وبدا فريداً وخلفه الشاطئ البعيد يبدو، ببناياته ونخيله، في مثلث الفراغ الذي تؤلفه ساقاه المنفرجتان المنصبتان فوق القارب، وفي هذا المثلث كانت سيارات تتحرك على الشاطئ الآخر، وأطفال برزوا فجأة، مدرسة على الشاطيء، وهناك رؤوس نخل تحدّق في الأعلى وهي مجذرة في الأرض والبيوت. في البعيد أيضاً كان هناك نُصب عال ذو فراغات غامضة: كل هذا كان ساكناً أو كان يتحرك ضمن مثلث ساقيه، إبتداء من مركز حوضه حتى حذاءيه النائمين على السطح الخشبي كسلحفاتين صغيرتين، وبدا الوضع بالنسبة لي وكأنه دلق هذه الأشياء من جوفه أو أنها خرجت من أحشائه عفواً. ثم

Twitter: @ketab_n

جمع ساقيه فحذف كل شيء ونظر إليّ، وكان يطفو في أعلى النهر منتظراً صعودي، ولكنني لم أصعد، وصحت:

- إنني ذاهب.

توقف عن سيره وهو يكشط سطح القارب بحذائه، وألقى بسيجارته بعيداً. هتف:

- إلى أين؟ لماذا؟

فلم أحفل باضطرابه.

- إلى الغرفة.

وفكرت فجأة بالخطاف، ما الذي كان الطائر المجنون يفعله هنا في هذا الوقت؟

(نشرت في مجلة الكلمة العراقية، العدد الأول (أيلول) ١٩٦٨، السنة الأولى)

Twitter: @ketab_n

يجوب المُدن وهو ميت

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«غبي، غبي، غبي، تندفع دون غاية وها أنت في أطراف المدينة لا تدري إلى أين تركض هذا الركض الجنوني، مسرعاً، مسرعاً نحو لا شيء في هذا الظلام الفظيع، كأن لعنة تلتهم الأرض في أعقابك». كنتُ أسبّ وقد خرجت كالوطواط بعد مطر عنيف قصير الأمد، وفتحت الباب فانطرح مستطيل من النور على العتبة وخطوت عليه وظل الباب مفتوحاً ثم انغلق بعنف، وكنت لا أزال أسمع عربدتهم وهم سكارى حين بدأت أجري وأندفع متخبطاً بعيداً عن الدار. . . بعيداً عن المدينة. وكنا قد جئنا في إجازة إلى هذه المدينة الغريبة، ونزلنا في غرفة رخيصة تقع في ضاحية، واشترينا، بعد تجوال قصير، عدّة زجاجات من الكحول. تقززت فجأة وأنا أرقبهم يعوون ضحكاً بلا سبب، لقد بدوا لي وحيدين جداً كأنَّهم يبكون باستجداء من فرط العزلة.

وأشعلتُ سيجارة، ثم انطفأ النور القليل المنبعث من الثقاب المشتعل، فساد الظلام مرَّة أخرى كبركةٍ من الحبر. وتخبطت، محاولاً أن أبتعد نحو منطقة باردة كنت أشعر بغموض أنها قريبة. كنت ألهث، وغمرت وجهي رائحة الكحول الشمعية فأغثني. وأقرفني أنني مخمور وغير نافع كحيوان. ثم لمحت ضوءاً رصاصياً

Twitter: @ketab_n

يئز في منعطف خال، ويبدو أنها ساحة تُتخذُ سوقاً مؤقتاً، سوقاً ريفياً. اندفعت صوب النور، واقتربت من شبح هيكل ضخم ميزت في مقدمته مكان حصان فارغ. كانت عربة عُلّق في وسطها فانوس كبير، وللعربة باب ونافذتان. وبطّأت في سيري، كانت أوراق شجر وتبن يابس تلتصق بأسفل حذائي الرطب.

وسمعت صوت امرأة يقول لي: «أضعت طريقك؟» دققت فيها نظري، مقترباً منها بتمهل. كانت امرأة طويلة الشعر كما لاحظت. ورأيتها تتكئ على جدار العربة وهي جالسة في جوفها، ظاهرة في فراغ الباب كإطار بشري مضاء. ولم أكن أميِّز تقاطع وجهها فقد كان النور خلفها. وبدأ لهاثي مخزياً فحاولت أن أهدئ من انفعالي. قلت مخاتلاً:

- ماذا تفعلين هنا؟

ضحكت ضحكة ساخرة، وقالت ببطء وأنفة:

- أعيش.

وهزّت كتفها بشكل طأطأت معه رأسي. لم أدرِ ماذا أقول، ولكنني كنت أشعر بشيء من الارتياح الغامض وكأنني بلغت مكاناً كنت أبحث عنه منذ زمن طويل. وميزت على نحو مفاجئ وجوداً آدمياً، رجلاً يستلقي في نهاية العربة. كنت قد اعتدت على النور، وبرز وحه صبي أيضاً. والتفتت المرأة إليه. وقالت له بشكٍّ:

- ماذا تحمل في يدك؟

فقال الصبي:

- إنه فأر.

لطمته المرأة بصمت، ففتح الصبي يده وترك الفأر ينسل في

Twitter: @ketab_n

داخل العربة. قلت ضاحكاً بخفوت:

- ألا تخافين من الفئران؟ فقالت المرأة باحتقار:

- لا أيها الفأر.

وشعرتُ بغضب. فتحتُ عينيّ على وسعهما، وكانت رجلاي قد تخدرتا تعباً وقلت بصوت جاف:

- إنكم غَجَرٌ، أليس كذلك؟

فلم تجبني المرأة، كانت قد ذهبت إلى طرف العربة القصيّ وعادت إلى فشملتني عيناها الغريبتان بنظرة تشبه ماء مثلجاً ينصبّ فوق رأسي الحار.

وقالت لي:

- إقترب، إقترب قليلاً.

ترددت. كنت قد بدأت أفكر بأشياء مخيفة. واقتربت منها، محاولاً أن أسيطر على ذعري الخاص لئلا يطفو على وجهي فأُفتضح.

حدّقت المرأة في عينيّ، وقالت: إنَّه زوجي، وهو يموت».

قلت: من؟ من ؟ وابتعلت ريقي.

أشارت برأسها إلى الوراء، وقالت:

- كان رجلاً قبل أن يأتي إلى هذه المدينة، وقبلها إلى المدينة الأخرى.

صمتتْ، ثم بدأت تتكلّم ببطء، حالمة:

- أخذني من (مرتضى غرغز) وهو مجرّد جبان، لذلك هربنا، مصطحبين معنا هذا الصبي. اجترأت أن أقول بتمهل:

- أليس ابنكما؟

Twitter: @ketab_n

قالت: - كلا ولد ضائع، ولد بلا أبوين. مسروق، كما أظن. نحن غَجَر كما تعلم، لصوص وجوّابو آفاق، نجري وراء سحابة الربيع ونهرب من المطر ومن القيظ. لا نستطيع العيش إلا فيما بين الفصول. ولكنه بدأ يعجز ويتشرّب عادات المدن، ذلك الذي يموت خلفي الآن.

قلت مازحاً:

- إنه ليس ميتاً؟

فلم تجب، وأرعبني حزنها الجبار فجأة. ظهر بوضوح لحظة ثم اختفى من وجهها، وعادت تقاطيعه صلبة، محفورة بعمق. وتحرّك هيكل كبير إلى جانبي، كان ينهض مع الجدار، أسود، ضخماً ضخامة غير معقولة. وقالت مشجعة:

- لا تخف إنه حصان،

فتمالكتُ نفسي، وقلتُ بضعف:

- أرجوك، هل أستطيع أن أجلس على الدرج قليلاً؟ إنني دائخ بعض الشيء.

وراقبني وأنا أجلس تحت قدميها مباشرة. قالت ببطء:

- لقد كنا سعداء.

قلت معتذراً:

- إنني لا أفهم؟.

فرددت: - كنا سعداء، مارقين كأطفال ماكرين جداً، أطفال ذوي قلوب صافية. وحين بدأنا نقضي الشتاء في المدن، بدأنا لا أدري ماذا، لقد بدأ يكره التجوال الدائم، بدأ يفكر بأشياء غريبة. بدأ يصبح جباناً ومتواكلاً.

Twitter: @ketab_n

قلت مفكراً:

- حسب ما أعلم، إن الغجر أناس يرقصون ويغنون لقاء نقود. وعلى كل حال، فهم نوع ممتاز من البشر.

وأضفت بتزلف ملح:

- وأنا، شخصيّاً. أتمنى أن أكون رجلاً غجرياً.

وامتلأ قلبي رضى. مسحت عرقي ورحت أحك أسفل حذائي بالدرج لأزيل عنه الطين. وقفز جسد مشعر فجأة داخل العربة وأحسست به خلف ظهري. ذعرت كثيراً وصحت بالمرأة هلعاً:

- ما هذا؟.

فضربت المرأة الجسد الأسود وأعادته إلى داخل العربة كنت أرتعش، وأصابني فواق مضحك. وقالت:

- إنه كوستا القرد.

صرخت بصوت جاف:

- قرد؟ قرد؟

فقالت المرأة:

- إن كوستا قرد عجوز.

وحاولت أن أضغط على نفسي لأزيل رعبي، ولكنني لم أستطع. كانت المرأة الغريبة تراقبني بعطف. وأدركت فجأة أن عينيّ جاحظتان، وحاولت أن أضيّقهما بعض الشيء. رفعت إليها نظري وقلت برباط جأش:

- إنني لست جباناً. أعرف أنك تفكرين بأنني جبان، ولكنني لست جباناً.

ظلت على صمتها. ثم قالت:

Twitter: @ketab_n

- تعال إلى هنا. إصعد إلى العربة؟

وإنزاحت قليلاً فترددت. فجأة فكرت بأصدقائي السكارى، لا أدري لماذا. لطمتني فجأة فكرة أنني أحلم، وأقنعني وجود الحيوانات في هذا المكان بأنني إنما أعيش كابوساً أو حلماً.

غبي، لماذا هربت على كل حال؟

قلت لها:

- أظنني سأعود.

قالت بإشفاق مفاجيء:

- إلى أين؟ تعود إلى أين؟

فهمست بذهول عميق:

- لست أدري إلى أين.

وقالت ثانية:

- إصعد، هيا وإذا شئت نم هنا.

كان الصبي نائماً، والقرد منكفئاً في ركن ناء من العربة المظلمة. وارتجفت حين فكرت بالرجل الميت. قلت:

- انتظري أخبريني، هل هو- هل هو ميت فعلاً؟

قالت بحزن:

- هو، نعم، لقد مات. تعال، لا تخف منه. إنه نائم، اعتبره نائماً كي لا تخاف.

وأضافت، كأنها تكلم نفسها:

- مات، نعم، نعم. يجوب المدن وهو ميت. منذ أخذ يبيع كل شيء. يبيع نفسه، يبيعني. مات قبل أن يبيع العربة، لحسن الحظ.

Twitter: @ketab_n

لم أتردد بعد وصعدت إليها. كان الفانوس يرتجف وقد بدأ مطر جديد يهطل، وكنت أشعر بغموض أنني أركب سفينة من نوع غريب، تضطرب وسط عاصفة. ورأيت وجه المرأة، كانت صغيرة، شابة، واستدارت، وبرزت تقاطيع وجهها جيداً وأدركت أنها كانت تبكي، وربما منذ مدة طويلة. وقبل أن آتي بأية حركة، قالت وهي تتأملني، كأنني طفل بائس:

- هل تريدني؟.

(نشرت في السلسلة القصصية (القصة)، الجزء الثاني، السنة الأولى، مارس/آذار ١٩٦٨، بعقوبة)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الحمامة والزنجي

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حين هبط الزنجي إلى الماء، أخذ يسبح وهو يشهق بصوت عال حتى أصبح في وسط النهر تقريباً. وأمضى أكثر من دقيقتين وهو يتقلب على نفسه عارضاً بطنه تارةً وظهره تارة أخرى كسمكة غريبة من الأبنوس. ثم تراخت عضلاته المتوترة واستسلم للماء وهو يملأ به فمه ويقذفه منه في نافورة تندفع من بين أسنانه بقوة. وأخذ يخرج من الماء، وأخذ يدور حول نفسه ويحرك ذراعيه بعنف حتى جف. وارتدى قميصاً ثم تناول الحمامة التي كان قد وضعها في ظل حفرة. ومسَّد عليها بيد رخوة وسمع صوت طير مجهول. واقترب من الماء ثانية فوضع الحمامة على حافته. ولكنها أحست بضعف، فقرّبها من الماء أكثر. وإذ لم تشرب، وضع يده المفتوحة في الماء وملأها ثم غمس فيها منقار الحمامة القشف باليد الثانية. شربت بذعر، وكان رأسها الأبيض ينحدر نحو الوراء كرأس بجعة صغيرة. وعرف الزنجي أنها جائعة. فأسرع يتحسس النهر، سائراً في الرمل الرطب بخطى قصيرة سعيدة، ومتخطياً كومة غربان كانت متجمعة حول قُمامة، وساق حصان مقطوعة لا يزال عليها الشعر الحيواني الخشن والحافر الذي كان قد غسله ماء المد مرات عدة فأصبح أسفله المواجه للنهر كمرآة مستديرة من العظم.

Twitter: @ketab_n

وحين وقف الزنجيُّ فوق الحافة العالية للنهر، نظر إلى الأسفل حيث تتحرك المياه في الحوض الطويل الذي كان يمتد عليه الجسر البعيد كدودة قز كبيرة. وحيث كانت الغربان تتسكع، كان يمتدُّ مجرى طويل من ماء وسخ يصل حتى المقهى المرتفع الذي كان فارغاً ومقفراً الآن.

وقال الزنجيُّ للحمامة:

- ها نحن ذاهبان لنأكل. فلتصبري.

ونظر إلى عينيها المدورتين اللتين كانت أجفانهما الجلدية تتحرك فوقهما بغطائين متورمين: وغلبه الخوف. يجب أن لا تمرض بأية حال. وسار بسرعة وقد خطر له أن الطيور تموت دائماً عندما تمرض. الأطفال جميعاً يشعرون بذلك سراً. وقد كان الزنجي طفلاً بدوره. ثم فكر بأنه هو نفسه جائع، فكيف لا تجوع الحمامة وهي طائر كبير نسبياً بالنسبة للعصافير التي تأكل دائماً وأبداً كل ما يصادفها، بسرعة وقلق. واجتاز المقهى ثم دخل إلى ما تحت الجسر، وكان رطباً ومعتماً، ومريحاً. والشارع: أخذ يسير بين البنايات وهو يبحث عن حل يستطيع فيه الحصول على طعام يصلح لطائر. وأحس بها ساكنة تحت (. . . .)!!!، في داخل قميصه. وكان ريشها الحار اللّين ينبض خفَّة مع ضربات دمه العميقة. ووقف أمام عربة يجرها حصان أبيض، وكان كيس من التبن قد ربط حول فكيه. فكر بأنه لا بد من أن يوجد طعام لحمامة حيث يوجد طعام لحصان. نهض رجل نحيف كان يضطجع في العربة على حركة الحصان القلقة، ورأى الزنجيّ فرآه هذا بدوره. كان رجلاً دميماً وكانت تفوح من العربة رائحة سيئة غريبة.

Twitter: @ketab_n

واستفسر الرجل من الزنجيّ بعينيه، فمدَّ هذا يده إلى الحمامة وخرج بها إلى النور. قال الزنجيُّ:

- إنها جائعة.

ونظر إلى الرجل الذي كان واقفاً في العربة الخشبية، في ظل بناية قديمة. هبط الرجل من العربة أخيراً فقاد الزنجي إلى خان في المنعطف كان يرقد فيه عدد من الشحاذين والفلاحين والحيوانات. وغاصت يد الرجل في كيس كبير كان مفتوحاً ومسنداً إلى جدران الخان. ثم خرجت مليئة بالرز. وقال للزنجي: لنخرج بسرعة.

خرجا. وفي ظل العربة أطلق الزنجي حمامته. أخذت تأكل وهي تخطو بين حبات الرز بقامة رشيقة. نظر الزنجي إليها بحنان، وأخذ صاحب العربة يدخن بصمت. لم يسأله شيئاً، فشعر الزنجي بامتنان غريب تجاه الرجل. ورغم دمامته كان فمه ينفتح باسماً وهو ينظر إلى الحمامة. وشبعت هذه، فأخذت تتجوّل بمهل بين أقدام الحصان حتى اقتربت من الرجل، ثم أخذت تبحث في أسفل البناية بلا هدف ظاهر. وأمسك بها الزنجي وهو يقلّد صوت طير شاذ فأعادها إلى حيث كانت بقية من الرز، ولكنها أخذت تتسكع ثانية. رفعها عن الأرض وشكر الرجل ثم عاد إلى الشارع: لمح مطعماً شك فيه لأول وهلة، ولكنه سرعان ما رأى بداخله رجالاً فقراء كان بعضهم حفاة، فاطمأنّ. ودخل فجلس في زاوية بعيدة عن الآخرين. ووضع الحمامة على المنضدة. كانت هناك بقايا خبز وقشرة بيضة، فأخذت الحمامة تضرب سطح المنضدة المعدني ضربات صغيرة غاضبة. والتفت شاب غريب إلى الزنجي، فرآه مديراً إليه ظهره. وعاد الشاب إلى طعامه فأنهاه بسرعة ثم نهض

Twitter: @ketab_n

فسار نحو منضدة الآخر. رفع الزنجي رأسه وهو يشرب ماء. وجلس الشاب الغريب قبالة كل من الزنجي والحمامة وأخذ يتحدث. وأشار إلى الحمامة برأسه.

- هل تستطيع أن تطير؟

- قليلاً فقط. لقد قصوا بعض الريش من جناحيها. ولكنه سينمو.

قال الغريب: - ماذا، أليست الحمامة لك؟

فأجابه الزنجي: - بل وجدتها في هذا الصباح فقط.

وفتش في زوايا صحنه عن بقية من الطعام ثم انتهى ونهض فغسل يديه وفمه بالصابون. وقال الشاب الغريب بصوت صاخب:

- أيتها الحمامة، خذي، كلي، كلي أيتها الحمامة!

وكان يقدم لها رخوة!!! باطن!!! رغيف بيد ضخمة، متخشبة الظاهر. وحين جلس الزنجي سأله الغريب إذا كان يعمل. فأجاب بالنفي.

قال الشاب: - ألا تعمل أي شيء إذن؟

فأجابه الزنجي بأنه قد جاء إلى المدينة هذا الصباح فوجد الحمامة في محطة القطار، مهجورة لا تستطيع الطيران.

- وأين تعيش الآن؟

قال الزنجي: - ليس لي مكان بعد.

وأخذا ينظران إلى الحمامة التي بدأت تدور حول نفسها، ثم طارت من المنضدة فهبطت إلى أرض المطعم. وقال الغريب:

- ستعمل معي منذ الغد. أتعرف كيف تبني؟

فإستفسر الزنجي:

Twitter: @ketab_n

- ماذا البيوت؟

- نعم. ولا يهم إذا كنت لا تعرف. إنني بنّاء، وسنشتغل معاً بعد الآن. وأوصاه الشاب أخيراً:

- كن هنا غداً في وقت الفجر. لا تتأخر.

وخرج بعد أن دفع حساب الزنجي. تجوّل هذا في المدينة طويلاً حتى بدأ المساء يرشح فوق البيت كمادة رخوة معتمة تشبه دواء: وفي عبّه كانت أطراف الحمامة قد تساندت في كتلة من الريش لا تصدر عنها حركة. واجتاز الزنجي حديقة عامة كان أطفال منهكون يغادرونها إلى بيوتهم، وشعر بالعجز من فكرة راودته: أن يترك الحمامة في الحديقة. ما مصيرها إن هو تركها في الحديقة. وتراخى تحت شجرة كانت أشعة ضعيفة لا تزال عالقة بأوراقها كمياه في زجاجة. وهبطت الحمامة من يد الزنجي إلى العشب. كانت عاجزة وخائفة جداً. وفكر بالأطفال الذين سيهاجمونها في الصباح. لن تستطيع أن تطير. وستراقب موتها المقبل وهي لاصقة بالأرض. ونظر الزنجي إليها بعطف. ثم نهض فأخذ يسير حتى هبط الليل وأخذت خفافيش صغيرة عمياء تنطلق بين جدار وآخر وأحياناً تمر قريباً من الأرض وتلامس أحياناً غطاء مصباح وتكاد تصطدم بالبشر في أحيان أخرى. وإذا ما أراد أن يتخلص منها فهل سيجد في هذه المدينة الكبيرة حديقة واحدة يطمئن إلى أنها لن تلاقي فيها مصيرها الغريب التافه في نفس الصباح؟ ونظر حواليه. كان منزل ذو طابقين يضطجع إلى يمينه وسط حديقة ذات نباتات قصيرة كثيفة. وأطل الزنجي برأسه من السور: تصوّرها مركومة بخوف هناك، تحت نبات عار. وفجأة ينعق أطفال قساة لأنهم وجدوا حمامة في

Twitter: @ketab_n

الحديقة، وتصوّرهم أطفال أغنياء شبعين. وأنطلق الزنجي على غير هدى، حاملاً معه الحمامة. وحتى إذا بحث في المدينة كلها فإنه لن يجد مكاناً آمناً واحداً يترك فيه حمامة مثل هذه. ولكن هل يجد مكاناً لنفسه هو، إذاا ما أراد أن يبحث؟ وأخذ يبحث بقلق عندما بدأت الطرق تهدأ وتفرغ من العربات رويداً رويداً. وأجبره الليل على الخوف والتيقظ، ثم شعر، نتيجة لذلك، بتعبه كله يلقي بنفسه عليه مرة واحدة، كرجل يحاول أن يفتح بثقله باباً مقفلاً. وجلس أمام فندق مظلم، بعد أن حاول أن يفعل ذلك أمام دار مظلمة أيضاً فطارده كلب ينبح من وراء سياج. وأحس بالحمامة تلوذ بلحمه العاري وهي تسمع نباح الكلب. لن يجد مكاناً لنفسه الآن، لا لنفسه ولا للحمامة. ولكنها لم تكن تقول شيئاً، لم تتحرك ولم يصدر عنها صوت. يا لصمتها! أخفى رأسه بين ذراعيه وهو يتذكر المدينة الأخرى، السجن المفتوح الذي يتساقط فيه المطر، والسجناء الصامتين المرضى، منقطعين عن جميع المدن بطرقها التي لا تحصى وبيوتها ومطاعمها ومقاهيها ونسائها وأطفالها وكلابها وعرباتها الغزيرة: هذه الأشياء كلها كانت حلم الزنجي عندما كان في المدينة الأخرى، في السجن الذي يتساقط فيه المطر.

استيقظ على صوت بطيء ينزل درجاً بعيداً. وسمعه بوضوح، كان يأتي من ورائه. ثم خرجت من الفندق إمرأة وكان صوت حذائها يكاد يجتازه الآن. سارت ببطء ثم وقفت لدى الزنجي. ونهض فأخذت المرأة تنظر إليه بعينين تائهتين. وقالت بصوت زائغ وهي ترفع يدها وفيها سيجارة:

Twitter: @ketab_n

- إنه لم يعد يرضى بأن يشعلها لي. لم يعد يرضى.

وترنحت وهي تشير إلى الفندق بإحدى يديها. ثم ضحكت، ففاحت في وجه الزنجي رائحة كحول. وأعطته علبة ثقاب فأشعل لها السيجارة. وقالت المرأة:

- ماذ تفعل هنا؟ آه! لا لا. نحن لا نسأل. نحن...

واستندت إليه وهي تغمغم بضحك متقطع غريب. وقالت:

- إنك متشرد أيها الزنجي. هل لديك مكان؟

فقال: - كلا ليس لدي مكان.

ربّتت على خده، وقالت:

- لا تخف. تعال لأريك بيتي.

وكان بيتها قريباً، ولكنه لم يكن أكثر من غرفتين في شبه ملجأ مهدّم، صغير، واطئ. وصعدت المرأة إلى الغرفة العليا.

- «وتلك غرفة هناء، صاحبتي». مشيرة إلى الأسفل بالمفتاح.

وضحكت بغضب في وجه الزنجي:

- ويا لها من هناء، أيها الزنجي!

وحين رأت الحمامة، نظرت إليها بدهشة كبيرة. تبدلت تصرفاتها تبدلاً واضحاً. وأمسكت بالحمامة في يديها الطويلتين النحيفتين وقبلتها من منقارها بشفتين مصبوغتين.... وقالت بصوت حار:

- لماذا أنت حزينة يا حمامة؟ لماذا أنت متعبة؟

ووضعتها في تجويف عنقها وأغمضت عينيها. وأخذت تتجوّل في الغرفة وهي ممسكة بالحمامة في هذا الوضع. وقالت المرأة بيأس غريب فجأة:

Twitter: @ketab_n

- لماذا؟ لماذا أنت هكذا حزينة، حزينة، حزينة!

وشهقت، فأخذت دموع كبيرة تجرف المساحيق التي تغطي خديها حتى حافتي فمها. وابتسمت للحمامة فجأة وقالت:

- سأطفئ الضوء. أنت نعسانة. وكذلك أنا يا حمامة. كذلك أنا. نعسانة جداً. ووضعتها على السرير برفق، ثم بدأت تخلع ملابسها وهي تنظر إلى الحمامة. وحينما انتهت المرأة من ذلك انسلت إلى سريرها وأرقدت الحمامة إلى جانبها ونامت.

(نشرت في مجلة العاملون في النفط، العدد ٧٠، كانون الثاني ١٩٦٨)

Twitter: @ketab_n

العُلبة والكُتلة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

دخل الوطواط إلى الغرفة وأخذ يطير في دوائر عمياء، ويصفح الجدران بجناحيه، وخفض أدمون رأسه وهو راقد في السرير، خائفاً من أن يمسه الوطواط الذي كان، بين حين وآخر، يقترب منه في طيران غير مسؤول حتى ليسمع رفيف جناحيه الجلديين ويرى رأسه الضفدعي الأصلع وهيكله الفِرائي. وأغرقه الاشمئزاز والخوف في موجة واحدة وقد استيقظت لديه جميع مخاوف الطفولة، ولاحقته فكرة أن الوطواط إذا لمس وجهاً آدمياً فإنه يلتصق به ولن يفصله عنه شيء. وإذا فُصل، وذلك بواسطة مرآة ذهبية، فمعه قطعة من اللحم على الأقل: أقوال شعبية! إلا أنها تجسدت الآن وواجهته مع دخول الوطواط إلى الغرفة. ونهض بإحتراس ففك مصراع النافذة وأزاح الستارة إلى اليسار بعنف. وفي الضوء الحاد الذي تدفق إلى الداخل ذعر الوطواط كثيراً وأخذ يطير متخبطاً كيفما اتفق حتى صادف النافذة المفتوحة فانحدر في فراغها. جلس أدمون في السرير ثانية. كان فوق رأسه إطار خشبي يضم صورة مسيح عار باللون الأسود. وهو حفر على خشب، لذلك كانت تقاطيعه بارزة والظل طاغياً حول رأسه ذي الهالة. وحدّق أدمون في وجهه بوجل: كانت عيناه مرفوعتين إلى أعلى،

Twitter: @ketab_n

ناظرتين إلى شيء غير ظاهر. وكان المسيح مدهوشاً بعمق، وهبط أخيراً بعينيه إلى صدره البارز الضلوع، كصدر صيّاد دبغه المناخ وماء البحر.

كانت علبة سجائره قد فرغت، وعليه أن يهبط. ولأنه جائع، لم يؤخر نهوضه، وتناول سرواله، وفتحه، وضع ساقيه في المكان المعد لهما في السروال. وربط حوله الحزام بشكل محكم. وارتدى قميصه ثم سار بلا أحذية، إلى الثلاجة ففتحها. هبّ عليه من جوفها هواء بارد، ومد يده إلى عُلبة من الفاكهة المحفوظة كانت مفتوحة، نصف فارغة. وشعر بالكراهية بغتة لأنه كان قد اشترى فاكهة معلّبة. وغمره إحساس بأنه مخدوع من الجذور. ولكنه أكل. وإمتلأ بالجوع رغم ذلك، ثم فاض مذاق الفاكهة السكري بين أسنانه. ولكنه بعد ذلك ألقى بالعلبة الفارغة تقريباً في القُمامة بغيظ، وغسل وجهه وأصابعه في المغسلة.

في الشارع سار بنفس الخطوة التي اعتاد عليها كل يوم. وانتظر أن يداهمه الغضب التدريجي على السيارات المارة، وهو ما يحدث في كل يوم. ولكن المساء كان بعيداً والسيارات قليلة. وبدت، الآن، كحيوانات تهدر بألفة وتتحبّب إليه. وأجتاز الشارع الخالي إلى جانبه الآخر، ودخل إلى محل صغير للسندويج. اقترب منه رجل أشيب فقال أدمون:

- واحد مُخ.

ونظر إلى الخارج، وقت السينما لم يحن بعد، لذلك كانت جموع الناس تتسكع حول أبواب السينما المشرعة. شبان يرتدون نظارات طبية، أحدهم أصلع، ذو تقاطيع كئيبة وفظة. وامرأتان أو

Twitter: @ketab_n

ثلاث. شرب ماء من كأس. وأغمض عينيه. في لحظة واحدة كان الوعي بالضآلة فحمه!!! ويزيل الراحة الفجّة التي تحيطه كموسى حاد تزيل الشعر من ذقن نامية. في لحظة كهذه، حين ينظر إلى أناس واقفين، وحين يكون، في الأغلب، جالساً، ميتاً، بلا أطراف حية يشعر آنذاك برعب رجل استيقظ فجأة برجلين مقطوعتين. امتدت يد تمسك بالمخ الحيواني الموضوع في صحن، ولكنه شرب الماء ثانية، وابتلع أفكاره معه. ونظر إلى الخارج.

برجوازي، مثقف برجوازي صغير ينظر إلى البشر الواقفين في الخارج، ولكن من خلال باب زجاجي. وأكل بشراهة، غاضباً على الخبز وقابضاً عليه بيد متشنجة. ولكن غضبه الحقيقي كان في أسنانه. وبدل أن تعض لسانه أو شفتيه أخذت تنغرز بلا شفقة في الطماطم المفرومة، في الخضروات، في اللحم، في الخبز، وتطبق على حافة الكأس المليئة بماء غير قابل للعض. لم يكن هناك غير برجوازيين مقنّعين ينتشرون كفئران متأنقة في الطرق والمحلات المحرّمة على الفقراء. ورائحتهم تدخل إلى بيوت الأحياء الحقيقيين، حيث يحدث العذاب بالغريزة ويولد بين أرجل النساء الصفراوات الدائمات الحبل. ضاق به المطعم فجأة. وغثته روائح الأغذية، وخصوصاً الأمخاخ الحيوانية التي كان الرجل الآشيب يأخذها في يده ويلقي بها في الثلاجة أو المِقلاة، مُخاً بعد آخر، ونهض فأعطى حسابه وخرج من المطعم إلى السقيفة الأمامية لدار السينما، مصدوماً بقدرته المفاجئة على الغضب بهذا الشكل المدمّر. سرت دمدمة خافتة بين الجمهور الواقف أمام الأبواب، وبدا أن آخرين يخرجون من أماكن مجهولة وينضمون إليه.

Twitter: @ketab_n

وبالفعل، رأى أدمون بدهشة عدداً آخر من الناس كان مبعثراً حول ناصيتي الشارع يشرع ويقترب من حيث يقف. ولم تكن لديه ساعة، ففكر بأن موعد ابتداء العرض قد حلّ وهو السبب في هذا. وتحرّك من مكانه، مداعباً فكرة سينما نهارية. وارتفعت الدمدمة من حوله ثانية. ثم سمع أدمون بوضوح صوتاً قوياً يهيب فجأة:

- «أيها الإخوان، أيها الإخوان» . والتفت إلى يساره، كان الحشد قد تجمّع على نفسه فجأة وغدا كتلة متماسكة دائرية الشكل تقريباً. وببطء، برزت من وسط الكتلة رايتان كبيرتان من الخيش الأبيض، ودُهِش أدمون حتى حين اكتشف أنهما شعاران. فقد كانت لكل منهما ساريتان يمسك بهما شخصان من الواقفين. واقترب أكثر بحيث كان الآن يقف مصاقباً لحافة الكتلة البشرية الصامتة. وخفقت القُماشتان، مضطربتين بضعف، كشراعين لم يلاقيا ريحاً كافية. وتصاعد الصوت ثانية وهو يتكلم. كان الصمت العميق يرنّ كطبقة من الطباشير على الكتلة. وفي نهاية الصوت المتكلم ارتفعت صيحة موحدة: «يا!» وكأنها كانت الريح المطلوبة، فلم تعد السواري الأربع تحمل مجرد قطعتين من الخيش المطوي، بل انشدَّتْ كلٌّ ساريتين معا الآن، مجذوبتين بثقل يدين مليئتين بالتصميم، وانفتحتا على سعتهما. وقرأ أدمون على إحداهما:

- «أطلقوا سراح السجناء السياسيين». وتحرّك الحشد فجأة. انساب كقطعة طافية من الماء، مع مجرى الشارع. ولم يكفّ الصوت العميق الذي كان بمثابة العتلة المحرّكة لهذه الآلة الحيّة من الأصوات والروائح والغضب المشترك، والبؤس، اكتشف أدمون

Twitter: @ketab_n

أخيراً. وتبخّرت آخر شكوكه تحت وطأة موجة حارة صعدت إلى حنجرته، ولم يعرف، للحال، ما هي. لم يهتم كثيراً وبالرغم من أنه كان لا يزال يصطدم في سيره بحافة الكتلة المتحركة، إلا أنه كان الآن مجبراً على ذلك: كانت الكتلة قد قست وتصلّبت كأنها عضلة واحدة، وأخيراً استطاعت ذراعه أن تلج فجوة بين شاب صامت يسير خافض الرأس ورجل متوسط العمر ذي شوارب كثيفة كان يصيح بحقد جاف، مبحوح الصوت. والتحم برائحة العامل الذي كان يصيح، من جهة، وبصمت الشاب المثقل بالإدانة. لم يكن حتى الآن قد تنبَّه إلى معنى الخطبة المستمرة التي كان لعباراتها المهيّجة وقع خطوات الحشد، ولكنه أخذ يبصر الأشياء بوضوح أشد الآن. واصطدم بمرفق الشاب الموضوع في جبيرة مخفاة تحت القميص، كما اكتشف. كانت قد حدثت إذن أشياء سابقة لم يُتح له هو أن يكتشف وجودها إلا الآن. وأدهشه بعمق أن يسير وسط هذا الحدث، محاطاً بمضاعفات أشياء سابقة ومقبلاً على حوادث جديدة. حتى هذه المسيرة ربما كان تابعاً آخر في سلسلة لا تنتهي. وكانت السلسلة، حتى الان، تحدث بدوني. تحدث بدوني تماماً تماماً. أخذ الشارع يغلي ويهدر. والسيارات، المحملة بجميع موظفي العالم، تقف صاغرة وتتطلع بواسطة العيون العديدة المغروزة في أجوافها إلى الحشد. وغدا الآن ضجيجاً حقيقياً. من المجرى المستقيم للشارع كانت الأصوات، ثم تفيض، بغتة، في الأزقة والحواري الغامضة المليئة بالأطفال. وروائح أشجار تتقدم نحونا. استدار وجه الشاب المثقل بنظارة مبللة بالعرق، وأخذ يتقدم ووجهه إلى الحشد، سائراً بالعكس، منظماً الأطراف المنفلتة

Twitter: @ketab_n

بصوته الذي لم يعد يسمح الآن وهو ممتزج بضجيج غريب أدرك أدمون بغتة أن صوته هو يشترك فيه. عدة فتيات كنَّ يتحركنَ بإيقاع واحد، صارخات بأصوات مبحوحة، وشعرهن مبتلٌّ على جباه جميلة. كنّ الآن أجمل، بمزيج من جمال الأطفال وحركات الأم حينما ترعى. كان شيء ليس ظاهراً بعد، يجعلهم يقتربون، متماسكين، مصمّمين. ونظر إلى الرصيفين. وسط الهدير. كان الواقفون يتفرجون وللحظة، أفردوا في داخله أكياس غضبه وأحقاده الشخصية بشكل متمايز، جعلوه يراهم بعمق المصيبة أو لحظة الفشل الساحق، فأحس بأنه يعرفهم جيداً وأنه سيهجم عليهم بوحشية في أية لحظة. ومسه الشاب الذي كان لحزنه تأثير إنساني فائق، كما يصبّ فوق قرحة جلدية. والآن كانت عيون المتظاهرين تتجه نحو الآخرين. وانضم شبان إليهم، ولكن أكثريتهم، البشر المعلّبين في بدلات والمقيدي الرقاب بأربطة أبدية، كانوا يطفئون الرعشة الطاغية التي كانت توغل حتى في أشجار الشارع، بجدالهم الخانع مع أنفسهم، الواضح في ملامحهم التي كانت في الأخير، دائماً، تستكين تحت وطأة التفكير بالذات والزوجة، أو الوظيفة والمنفعة الخاصة. لم يكن شيء يجدي، لم يكن هناك أمل إلا في تعريتهم من مشنقة الرباط والمنفعة، ومن وضعهم المتبلد على شكل علاقات وملابس وخوف من عدم الأمان وعدم الراحة، تعريتهم وتحطيم هذا الزجاج الذي ينظرون من خلاله إلينا. أدمون كان الآن يراهم عراة. وقد حدث أن نفض ذلك الغشاء الذي يتقزز منه الآن، والذي لم يعد يراه الآن. هل كانوا بحاجة إلى دافع؟ تكاثفت رائحة الشجر حين إختلطت برائحة العرق الحارة المنبعثة من الآباط

Twitter: @ketab_n

وتجاويف الجسد الأخرى وشعر النساء الكثيف الذي أخذ يبدو له كأعشاش، مبللة بالدمع وليس بالعرق. كانوا يدخنون على الأرصفة وينظرون، وأفزعه أن يرى نفسه بشكل مفاجئ وهو واقف هنالك، يرتدي ملابس تضعه ضمنياً في صفهم وتجعله يسير في شوارعهم نفسها ويتحدث معهم فقط في أماكنهم الخاصة، في السينمات والمقاهي، في الأماكن التي لا معنى لوجودها إلا لأنهم هم يفضحون فيها رغباتهم الزائدة والمريضة، ولا شيء غير ذلك، لا شيء غير ذلك اطلاقاً. كان من الفظيع ان يرى نفسه في شخص أحد الواقفين، يدخن بتلك النظرة التي تشمل كل شيء وبذلك لا ترى شيئاً. صحيح جداً أنه لم يكن ينظر إلى أي شخص أو شيء لذاته، وأنه لم يكن أكثر من ذلك الموظف الشاحب الذي يبدو على وجهه الاقتناع التام بأن سلامته تكمن في أن يظل في مكانه، لكن يستطيع بعد ذلك أن يصل هو إلى البيت. أن لا يصطدم أبداً، أن يعارض أبداً، أن يكون ميتاً ونظيفاً أبداً. اختفت الأشجار وانطلقت ثلاث رصاصات فجأة.

كحوض يتلقى ثلاثة أحجار تقوّض الحشد من الداخل. واندفعت نحوه بُقعٌ صفرٌ تلوّح بهراوات. وسيارة غير أمينة تقترب بمواجهة الحشد وتوجه عينيها المطفأتين الشريرتين نحو ظهر الشاب الذي يسير بالعكس، وفجأة يستدير، ويرفع يديه أفقياً وهو يتكلم، كصورة مصلوب. انتشرت البقع وسط الفوضى. وكان الحشد الآن ينتشر أطرافه في حارة هنا، وبيت هناك، أطراف متوترة تخفق كأطراف أخطبوط مذعور بريء يجرح بقوة. حتى الآن لم يكن هو غير نقطة. ولم تكن تتحرك، ولكن الدفقة وصلته. اندفعت نحوه

Twitter: @ketab_n

كتلة عمياء، امرأة ذات عباءة سوداء، مفتوحة العينين والفم، أسقطته بيديها القاسيتين المعتذرتين وانفلتت فوقه أقمشة سُودٌ لأم، لأرملة، ورأى من الأسفل، لبُرهة، العالَم، فضاء مقدساً خالياً إلا من كتلة سوداء تهرب عن يمينه. لم تكن هناك أشجار. ولكنه وثب، جازاً تلك البرهة السوداء كما يجزّ حبلاً يربطه. وأخذ يركض والحشد يتغذى منه ويتقبله ويعطيه هذا الشعور الموجز الدقيق بأنه يغذيه منه، وبينهما حبل سري من أحشاء، لم يكن هناك الآن غير عشرات الشرطة الصفر. وبعضهم يمسك بمتظاهرين. وإلى يساره منفذ. طويل. يصلح. ملأته الغريزة كدخان أبيض يخفي أية نتوءات أخرى. وفي ركضه اصطدم بمرفق، وسمع صوت سقوط معدني أجوف. وفي أثره صرخة. التفت برأسه وهو يركض. كان الرجل يجمع قطعتي كاميرا من الأرض. والجنون واضح في وجهه. هل سيلاحقه؟ بل بقي. كان أدمون الآن يلهث في مناخ النهر. وعن يمينه ظهر رجل فجأة. أستوقفه سأله. واكتشف أدمون ملابسه البيض. نادل في بار. وانفلت على مرأى لطخة صفراء تدبّ في بداية المنفذ، وأمامها الشاب ذوي الجبيرة، يركض بيأس. إلى اليسار كانت براميل كبيرة وأكوام من الحجارة في واجهة بناية ناقصة. سار ببطء، قاطعاً الأمتار الخمسة حتى وصل إلى البراميل. خدمته ظاهرة البطء لأن الشرطي لم يشك به. ثم دخل إلى البناية، لم يكن الآن يصله غير دبيب بعيد لأربعة أحذية، إثنان منهما ثقيلان. وامتلأت خياشيمه العصبية برائحة إسمنت حديث. وكانت هذه الرائحة تجعل جذور أنفه تنفر وتهتاج دائماً. وهناك غائط في الزوايا، بشري، وآخر لكلب أو قطة. عبرت الأقدام الأربع.

Twitter: @ketab_n

واثنتان منها يائستان. أحب الشاب بشكل فجائي وأعمى. وحرّك يده وكأنها مخفية في جبيرة، ولا تزال تتألم من ضربة هراوة. وكانت تمنعه من الركض. كانت تسبب موته وتُدينه. وهي جزء منه. وقبل أن يختفي وقع الأقدام كان حبه للشاب المصاب يفيض في أسنانه وجذور أنفه ويصارع رائحة الإسمنت والغائط ورائحة المخلوق الأصفر الحامضة. وكأنه، والشاب يمرق تجاهه، امتصَّ منه رعبه وحاجته إلى الأمان وأضافهما إلى رعبه الخاص وحاجته الخاصة. وخرج من البناية في حوض النهر كان شخصان يركضان في حلم. وميّز الشاب يركض بنفس التهدل، ولكنه الآن يركض بحيرة غريبة، وباستدارات عشواء كطائر صغير في غرفة. سوى أنه لم يكن يستطيع أن يطير. ومن أعلى، رآهما. في نصف النهر الذي كان يابساً وخالياً من الماء، كانت هناك نباتات وحشائش تعوق السير. وتمادى في عاطفته العمياء لم يكن مستقلاً الآن. كان مقيّداً، بنوع من الشجن الأسود الذي يتحوّل إلى فرح في قمة اليأس. كذلك حدث هذا التحوّل: إنه لم يكن أدمون. كان هو ذاك الظل الذي يركض في الأسفل. وبلهاثه يمتص العالم إلى رئته المفتوحة ويمتزج بهوائه. والنباتات تلحس سرواله وحذاءيه. تعوقه أحياناً ولكنها تستعطفه وتدعوه من الأسفل، كجميع الأشياء البريئة السجينة في أماكنها. ولا يعود يهمّ أن يسمع وراءه هذا الدبيب الأبدي. فهو الآن ليس ضده. إنه يدفعه إلى الاندفاع وتقصير المسافة بينه وبين النهر، بينه وبين هدفه البعيد. وانحدر أدمون الآخر، الواقف في الشارع أعلى الحوض إلى حيث كان يركض هو نفسه أيضاً بثقل يده المحطمة المصلوبة على جسده. وبين الاثنين،

Twitter: @ketab_n

كان الظل يفقد تأثيره ومعناه. كانا هما اللذان يسببان حركته. أصبح واعياً بهذا وهو يركض - وعياً أبيض عميقاً يحتضن الحوض كله، والجسر البعيد الذي أوقظه الضوء. وكان الثلاثة يركضون نحو النهر الذي لا يتوقف عن الجريان.

(بغداد، نُشرت في الآداب اللبنانية، العدد الأول، كانون الثاني ١٩٦٨)

Twitter: @ketab_n

عشاء متأخر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قالت بذعر: ماذا حدث؟

فطمأنتها قائلاً: لا شيء. لقد نفد البنزين.

زفرت بضجر، ودمدمت: ألم يكن من الواجب أن تعرف ذلك من قبل؟

قلت موارباً: أعرف ماذا؟

كانت مغلوبة على أمرها غيظاً.

وقالت: حاول مرة أخرى.

ففعلت، لا فائدة: كانت ماكنة السيارة ميتة، يفوح من جوفها هسيس العطش الحار. وقلت بلا مبالاة وأنا أصفق غطاء المقدمة المفتوح كفك ضفدع كبير: إذا شئت، ذهبت إلى المحطة القريبة لأشتري صفيحة بنزين. ماذا تقولين؟ إجلسي مطمئنة فنحن ما زلنا في وقت الأصيل ولا نبعد عن بيتنا إلا بمسافة دقائق. ماذا تقولين؟

فلم تجب على سؤالي. وقالت بعصبية: ولكن عُدْ بسرعة. عُدْ بسرعة.

أغلقت عليها الباب، وبدأت أسير. كنا في ضاحية، قرب مجموعة من البيوت الحديثة البناء. وطغت على المنطقة غشاوة من

Twitter: @ketab_n

الشمس الفاترة، والهواء يتشبع ببرد حاد قد يكون مقدمة لمطر ربيعي. وأشعلت سيجارة. إلتفت خلفي للمرة الأخيرة، وفكرت: يا لها من إمرأة جريئة. كانت قوية تتدخل في أصعب المواقف باندفاع وشجاعة. وبدت وحيدة فجأة وهي تجلس في السيارة الصغيرة البارزة في الطريق العاري كسلحفاة خضراء. خُيّل إليّ أن استغناءها الدائم، عن حضوري - والذي أصبح عادة - يتضح أكثر الوضوح في جلستها تلك، كأنها جالسة في قاع مسبح عظيم تمتد مياهه حتى حدود الأفق، وهي منهمكة تفكر بخطة لا مكان لي في أيّما تفصيل من تفاصيلها. وأشعرني هذا بكل البرود، بكل اللامبالاة التي تشوب علاقتنا. وتساءلت وأنا أبتلع الدخان الممرض بشهوة، عمّا إذا لم يكن زواجنا منذ الخطوة الأولى، خطأ. وفكرت: هذا هو كل شيء، سوء تفاهم. إلتباس. صدفة كان من المحتمل جداً ألا تحدث. سوء تفاهم مضحك بنينا على أساسه عالماً من الأشياء الغريبة. هذا هو كل ما هناك.

ونفضت رأسي. كنت منذ الصباح في حالة غريبة. وأدهشتني نفسي لأول مرة في حياتي، الطويلة نسبياً. لقد كنت موظفاً (محاسباً، في الحقيقة) ينحدر نحو الاكتهال، ببدلته وحقيبته كعلامتين مميزتين، أذهب في الصباح إلى قفصي الخاص في البنك وأعود ظهراً إلى بيتي دون أن أسلك في ذهابي وإياي إلا نفس الطرق. كان اليوم نهاية لشهر آذار، وقد قبضت راتبي، واقترحت على زوجتي أن نقوم بهذه النزهة. عرفت أنها لم تكن لتفكر بالنزهة. كانت، دائماً، مشغولة بأشياء لا دخل لي فيها.

ودخلت إلى دكان مضاء. إشتريت علبة سجاير، وألقيت بالعلبة

Twitter: @ketab_n

الفارغة إلى الرصيف. وسرت حتى حاذيت محطة البنزين. كانت إمرأة تملأ المحطة بنفير سيارتها. ودققت فيها النظر، غاضباً. فجأة، ميّزت وجهها الرجولي المسيطر، ونظّارة ذات زجاج ياقوتي على عينيها، وشعراً مموجاً يربطه منديل لحمي اللون. قلت في نفسي ضاحكاً: إنهما تتشابهان. وتصورت نفسي جالساً إلى جانبها، بوجهي الذي يشبه وجه فرس البحر - يشيخ على مهل في سيرك متجول. وسرت بحرص فوقفت قرب شجرة يابسة على رصيف المحطة. كان العمال يضخون الوقود في سيارة السيدة. راقبتها بعناية. إنها نفس الملامح (أعني ما تحمله تلك الملامح) - وتذكرت جيداً كيف سبق وان نهرتني زوجتي في مرات لا تحصى من حياتنا اليائسة. وكان كل ذلك يمضي دون أن يمسني، كنت كالخارج من طريقها وكانت تسلك هذا الطريق مستقلة عن كل ما له صلة بوجودي. بدأ هذا حين ذهبنا، في السنة الأولى من زواجنا، إلى الطبيب فأخبرني بأنها عاقر. فقدت اهتمامي بالنوم معها كثيراً، بعد سنين طويلة. وكنت أحلم وأشتغل، معزولاً في قفصي الضيق كطائر بشري سجين وسط جنس آخر. ثم عدت ذات يوم قبل موعد انتهاء العمل بساعة فلم أجدها في المنزل. سألت الخادمة الصغيرة فقالت: لقد خرجت منذ الصباح. قلت: منذ الصباح؟ متى؟ بعد أن خرجت أنا بكم؟

وعادت فرأتني وشحبت قليلاً. دخلت إلى غرفتها الخاصة.

وذهبت أنا إلى غرفتي فبدأت أقضم قطعة كمثرى قديمة كانت ملقاة على منضدة. لقد شعرت (عند رؤية وجهها الآتي من الخارج) بشيء معدني يسقط إلى قعر رئتي ويبقى هناك ليمنعني من أن أتنفس

Twitter: @ketab_n

براحة. كان هذا قبل ثلاث سنوات، وعشت معها حتى الآن وقد استقلت عني جسدياً تماماً. وهي تخرج دائماً. وكنت قد اقترحت اليوم عليها هذه النزهة مرغماً. كنت أريد أن أشعر بها، أن تتنفس بقربي. ولم يُجْدِني هذا شيئاً. صدقت، لقد كان كل الأمر مجرد سوء تفاهم. كان لها عشيق ما بالتأكيد، ولم تكن هذه غير نقطة غريبة سوداء في هذا البياض الذي كانت تتكون منه حياتنا. بياض بليد قاس لا أمل في أن يتموج يوماً بحياة حقيقية حارة.

أعطيت العامل نقوده. وسرت وأنا أحمل صفيحة البنزين الثقيلة برؤوس أصابعي التي سرعان ما تورّمت وهي محشوة في في الحلقة الحديدية. كانت سحابة بلون البنفسج قد بدأت تزرقّ في سماء المدينة، كأنها تمتلئ بسمّ بارد. وهطل مطر ناقم سريع فانعطفت إلى اليسار. واحتميت بجدار قديم طويل منتظراً انقطاع المطر. فكرت بها وهي جالسة هناك، بوجهها الذي يشبه قناعاً فارغاً جميلاً. ورأيتها غريبة جداً، طافية في الأعلى ولا يستلفتها ما في الأسفل قط. كنت أنا من يقف في الأسفل، بعيداً، جاداً، تائهاً ولا أهمّ أحداً. ولا أدري لماذا امتلأت فجأة بحزن جارف، غامض. كان ذنبي هو أنني خُلقت (نعم، منذ البداية) لكي أقف في الأسفل. لكي أكون صامتاً دائماً. ومخدوعاً وربما (ربما؟) بغيضاً أمام عينيها اللتين ترمقانني من داخل القناع الجميل الذي لم يكن ينزاح أو يلين لحظة، حتى عندما أكون على حافة الجنون موشكاً على قتلها أو إلغائها بأية طريقة. (في الحقيقة، كثيراً ما أردت أن أفعل ذلك). وكنت أعرف، حين أكون واقفاً وأنا عار أرتعش كالسحلية تحت مياه الحمام، أنني قد ارتبطت معها برابطة مسمومة من حب غريب

Twitter: @ketab_n

شاذ. كنت عجوزاً جداً، ومبللاً مثل قط مشرّد. وفكّرت ببيتي، وهمست لنفسي: سأتركه لها.

وضعت الصحيفة التي كان المطر ينقر عليها الآن بعنف لصق الجدار، وتركتها خلفي، وإندفعت أجري في الشارع. ثم بدأت أسير بتؤدة، لاهثاً ومنتفضاً، محاذياً حدائق البيوت التي بدت مهجورة آنذاك كمقبرة أموات أجانب. ومع كل خطوة، كنت أتركها ورائي، جالسة في السيارة، وربما تدخن سيجارة بعد أخرى، معدة سلسلة من كلمات الاحتقار لتصبّها على رأسي المرمّد وتلفّني بغشاء من نظرات الدهشة والامتغاض. آه، لقد كنت موضوع تقزز بالنسبة لها، لا شيء غير رجل كهل، جبان يختبئ في البنك طيلة النهار، ثم في غرفته الخاصة طيلة الليل. كنت غبياً لأنني لم أدرك كل شيء وفضلت الهرب والتنصل، الهرب إلى غرفتي. الهرب إلى داخلي، حيث لا شيء هناك. ولمست جيب سترتي الداخلي: كانت فيه المحفظة التي تضم راتبي الأخير. ويكفي ذلك لبداية حسنة.

كنت أوغل في ظلام المدينة، وظللت أسير ساعات وأنا أفكر بالمرأة التي تركتها ورائي. هل خرجت من السيارة، وعادت إلى البيت تحمل لي أكثر كلماتها تسميماً وأكثر تعريضاتها تنغيصاً، لا أدري. ولكنني كنت أشق المدينة نحو نهايتها الأخرى كالمجنون. ولا بد أنني كنت شاذ المظهر بالنسبة للمارة، فقد كانوا ينظرون إليّ بحذر ثم بدهشة آخر الأمر. لا بد أنهم فكروا بي على أنني مجنون عجوز انطلق من محجره فجأة إلى حيث البشر الأسوياء. وسرني ذلك كثيراً.

كان الوقت يقارب منتصف الليل حين دخلت مطعماً أغبش

Twitter: @ketab_n

تفوح منه رائحة الحساء الساخن. (كنت قد تجوّلت حتى لم أعد غير آلة فارغة مجهدة، تنقاد بخضوع نحو رائحة الطعام). كانت جماعة من العمال تأكل بحميَّة، ووقف الخادم فوق رأسي وقد أمال عنقه إلى ناحيتي، ناظراً إليّ بعين واحدة. قلت له وأنا أفكر شارداً: ماذا لديكم؟

فأخذ يكرِّر أسماء عدة وجبات بصبر، بينما كنت أنظر خارج زجاج المطعم إلى الناحية الثانية حيث اشتد المطر وهو يخدش الأرض بآلاف الأسنان المائية التي تتحطم على التو وتنجرف مع الفضلات والعلب الفارغة والقُمامة على سطح الأرض الصلد اللامبالي، وتذكرت بوضوح ذات يوم، حين ألمحت إلى خروجها الذي كان قد تكرر في المدة الأخيرة، وقالت بعنف: ماذا تريد مني؟ اتركني لمصيري.

وبدأتُ أقضم فلفلة خضراء وأنا أفكر بأنني قد فعلت ذلك الآن، وكأن صيحتها كانت نبوءة معذبة. لقد فصلت مصيرها عن مصيري، سلخت من عالمها هذه الكتلة المغضّنة من الجلد التي أحملها من مكان إلى آخر، والتي لم تجد مكانها الطبيعي قط في سريرها أو أمام عينيها. لقد تحرك شيء ما بصمت، وكانت هذه الحركة السرية كافية لكي تتركنا مبعثرين، أنا خلف زجاج تسحّ عليه مياه عابثة تهطل بالمصادفة وبدون سبب، وهي في صدفة مجوفة من المعدن. كحيوانين يشرّدان من قِبل أيد غير منظورة، أو سمكتين تعيشان معاً في عالمهما البارد ويحدث (بمجرد الصدفة أيضاً وبدون سبب مفهوم) أن تنتشلهما صنّارتان غريبتان في مكانين مختلفين. ربما كانت هذه الأفعال بدورها خطأ منذ البداية، كما كانت تلك

Twitter: @ketab_n

الرابطة التي أراها غريبة جداً ولا أفهم قط كيف حدثت ولأية غاية؟ أعني، زواجي.

حين أحضر الخادم طعامي، ووضعه فوق المائدة، فكرتُ بأنَّه أول عشاء لي، منذ سنين، أتناوله متأخراً إلى هذه الساعة من الليل. فقد كنت، حتى هذا اليوم، أتناوله في الساعة الثامنة من كل مساء. وكنا نجلس بمواجهة بعضنا على المائدة، أنا وهي، دون أن ينظر أحدنا إلى الآخر.

(نشرت في مجلة أفكار الأردنية، العدد ١٢، أيار ١٩٦٧)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الخط الممتد إلى هناك

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فتح عينيه على وسعيهما: كان يتخبط في كابوس فضي: وبذلَ قَذْراً آخر من وعيه في حركة عابثة من حذائه المقلوب على جنبه: ذلك أنه أخذ ينحت كعب الحذاء على قشرة الرصيف المغلقة، في محاولة لا تجدي للنهوض والجلوس على الأرض. تشبث بعامود معدني كان يحتضنه وهو ينهض ببطء. واكتشف انه يقف تحت مظلة مستطيلة من المعدن، أخذ يقرأ أرقام الباصات على أحد جوانبها.

ظهر في الشارع قزم كان يقترب منه بعينين ورديتين وبعطف. وقبل أن يصل القزم إلى مكانه ويقف في مواجهته كان محجراه يدلقان كمية كبيرة من سائل وردي غريب أخذ يموع على الاسفلت ويجري في خطوط متعرجة ضعيفة. وحاول، باحتراس، ان يصل بحذائه إلى حيث السائل الدافئ. وكان حذاؤه الآن يطأ الأرض في وضعيته الطبيعية، دافعاً بوزه مع مستوى الارض إلى الأمام، كفأر كبير يستكشف، وسأله صوت المخلوق الضئيل الذي كان يتفحص وجهه (أصبح واعياً به فجأة إلى درجة الرغبة في قتله) عن شيء، لم يصله غير: .. مريض؟

فلم يفتح فمه خوفاً من أن تفوح منه رائحة غريبة، وأكمل محاولته بالتحديق مباشرة في الكومة الوهمية التي كانت تتحرك مع

Twitter: @ketab_n

حركات الرجل القصير، كشبكة لينة من المطاط: وانتفخت حنجرته برغبة مذعورة في أن تصبح، كانت في داخله، هو أيضاً كومة وردية من الرعب والجبن وامتلأت حنجرته، صاح فجأة في وجه الرجل التافه الذي كان يدرسه عن كثب:

- ما الذي تريده؟

أفزعه أن يدرك بأن صوته غريب وشاذ، لم يكن صوتاً صحياً، ولمسه الرجل فأخذ فكاه يرتعشان منفصلين عن وجهه، قال الرجل:

- إذن فأنت لست مريضاً.

وصفعه بخفة وبإعجاب.

- أنت سكران، (ضاحكاً)

فهز رأسه موافقاً. وميز الرجل فجأة: كان أحد الرجال القصار القامة. وسأله بغضب حينما أدرك أنه جابي:

- هل سيأتي الباص؟

واستعد ليثب. سيخنقه بيد واحدة، منتهى السهولة يصرعه، لن يأتي أحد، سيموت سعيداً، لن يقبضوا عليه بسرع، لن يشنق بسرعة،

- نعم آخر باص.

وأسقط للصوت سلاحه: كان يقف، حاملا أسلحة وهمية وكان يعرف أنها وهمية. ولكنه كان متأكداً من أن هناك مسدساً صغيراً، مسدساً أسود يحدق في العالم بشراهة من عينه السوداء المفتوحة. ويستعد بإنتظار اللحظة. اللحظة التي سيصرخ فيها، ويرسل الثقوب (من مكان في يده) دون توقف إلى الأشياء، إلى

Twitter: @ketab_n

الأجساد، إلى الجدران ولكنه أنزل يده دون وعي جعله الصوت البشري يصحو: إلى البيوت إلى الوجوه - ها هو.

وتركه الشخص، منشغلاً باستقبال الباص. انفصل فجأة. غاب في المستقبل. أخذ يغرز عينيه في ظهره. ولكن سترته كانت صلبة، فلم يستطع أن يحرقها بنظره. وحاول أن يجره إلى الوراء. أن يمنعه من الدخول في مستقبله بعينيه. وتبعه. كانت عيناه تشعران بالضعف، قطعتان مدورتان من ورق خفيف وضعهما طفل على جانبي أنفه، وكانتا الآن تحفقان ولا تريان. فتحهما جيداً عدة مرات. وهمس: «إلى الباص سأصعد إلى الباص.» ورأى أمامه جسداً ضخماً صلباً يرتجف كآنية يغلي فيها الماء: وارتفع بجسمه (كأنه يسحب قطعة فلين ضخمة، ولكن خفيفة، من الأرض) فأولجه في الفتحة المستطيلة المفتوحة على الضوء في داخل العربة وتحسس المقاعد ثم تحرك الباص.

انزلقت البيوت فجأة، غمرت جوانبه، بحركة نسائية، وأخذت تتمايل. ولكن الانجراف في الشارع، والجلوس بهذه الثقة وسط تيار السرعة، الدخول في بؤرة مائية تدور وتنزلق وتهبط به عمودياً- كل هذا جعل عينيه تزوغان. وأخذ ينظر مبهوراً وطفت قطع البيوت في الماء، وانخطفت العواميد، والأضواء العالية تدور فجأة كعدد لا يحصى من الأبر، وتمشي شجرة باتجاهه فجأة تحيد عن حافة وجهه وتختفي، وهدأ كل شيء، واسترخى الزمن الذي كان قد تمطى وتوتر إلى درجة الانقطاع تحركت العربة ثانية، فعادت الخفة تغمره ثانية. الدوران، الوثوب، الموت، النوم، الصراخ الصامت، البيوت، اليد، تحفر، تحفر، وعمودياً إلى الأسفل، إلى الهواء،

Twitter: @ketab_n

الأسفل في الاعلى، ورأى الطبيعة المقلوبة المرحة الخائفة، المسدس، وسالت ثقوب لا تحصى، مدينة كاملة من الثقوب وجسد أبيض مضيء. ويده على زجاج - خلفه بيوت كبيرة تسبح كالأسماك وطفا. فجأة رأى من الأعلى، وكأنما من طائرة، رئه هائلة تتنفس. إسفنجة كبيرة فيها آلاف الثقوب، وبشر مجهولون يدخلون ويخرجون، يدخلون ويخرجون، يعملون. وفي خارج الإسفنجة تطوف مواد شفافة، طيور غريبة نائمة.

وتوقف وعيه على حين غرة. كأنما هبطت عليه سكين. سار في العربة التي كان كل شيء فيها يحاول التملص من جذوره ويصرخ، من المقاعد التي رآها ترقص جميعاً بحركة موحدة فيها انتشاء- إلى الباب الذي لم يكف عن القرقعة لحظة. وركلته الحركة العنيفة للتوقف في ظهره. ودفعت به كي يتراكض في تجويف العربة حتى ينحدر من الفتحة المستطيلة إلى الشارع والظلام. وابتعدت عنه غرفة الضوء، هاربة إلى أقصى أطراف السواد وتحت وطأة الغريزة التي أخذت تسفح سوائلها في داخله، أخذ يفكّر، بينما يجتاز الشارع، باسترجاع الحالة التي كان فيها قبل لحظات. ولكنه ألقى نفسه في وضع بليد شَعَر برجليه، أثناءه، ثقيلتين تخوضان مستنقعاً وقال لنفسه: عبّرْ عن شيء ما أيها الحقير - وأخذ يفكّر بالباص، أخذ يفكّر بأجنحة حيوان طائر: كان ذلك في الصباح، في صباح ما، في هذا الصباح: حين مسك بديك هارب من تحت إبطيه، وبذلك انفرد جناحاه إلى جانبيه وتدلى رأسه الأحمر المرعب وبدا مصلوباً على جسد بشري، حياً ومصلوباً يصرخ بلغته الحادة، البريئة، الناشزة، يصرخ بيأس حتى ينبثق من عينيه، وتذكرت

Twitter: @ketab_n

أصابعه ملمس الريش الورقي - المادة التي كانت تكسو جسم الحيوان.

كان سينام في بيت أخته المتزوجة فغرفته بعيدة ولم يعد يتحمل أن يفكّر بالنوم وحده هذه الليلة. في غرفته العارية، في غرفته التي تكون، حينما يعدو إليها في الليل، قد أفرغت رائحته البشرية وأخذت تفوح برائحة نفسها: الرائحة الباردة، رائحة المرض التي تمتلكها كل غرفة معروضة للإيجار. وترصدته عينا كلب عندما اقترب من مخبئه لم ينبح، انما كان يراقب ويرسل بنظره إلى وجه بشري يقترب. وتجمّد في مكانه حينما أبصر وجه الكلب. تأمله بإعجاب، كان كلباً أبيض، أعزب كما يظهر، وإذ توقف، فإنَّ الكلب أخذ يراقبه بحذر تمازجه دهشة.

مرت لحظة قبل أن يحسّ بأنَّ تياراً يصل بين عينيه وعيني الكلب وأخذ، بهدوء وعزم، يبكي، منتظراً في مكانه. وفكر أولاً بأنَّ الكلب سينبح، ولكن الحيوان ظلَّ متوتراً ثم فتح فمه فبدا لسانه في هيئة مرحة داخل فمه، وبدتْ أسنانُه في فكَّين ضيقين طويلين، وتثاءب الكلب بصوت يائس كصوت رجل عجوز، وكفّ عن النظر إلى الرجل. وميّز هذا مكان الكلب، وكانت بالقرب منه دمية زنجية من قش، مبقورة ما بين الساقين وملقاة عرضاً خلف الكلب. كان دافعه إلى الشعور بهذا الحزن الحار، العريض هو مقدار الشجاعة والطيبة في حياة كلب ما يعيش عدة سنين ويموت موتاً مجهولاً. ثم فكّر، صاحياً فجأة، بأن البراءة الكامنة في وضع الكلب، حياً قرب دمية من قش، تحتَ حائط بيت، في ليلة هي هذه الليلة بالذات - هي براءة نادرة، حيوانية، لقد حدث كلُّ شيء بالصدفة وانبعث من

Twitter: @ketab_n

حنجرة الكلب صوت تثاؤب شاكٍ، صوت حيوان غارق في أحلامه الكلبية، وأخذ تحت دفقة مضاعفة من الطاقة، يسير بخفة حتى وجد نفسه يجتاز الجسر وينظر إلى كتلة عريضة ساكنة تحته، وانبهر فجأة، كان النهر ميتاً موتاً مطلقاً. وبدا من الأعلى ذا قشرة متماسكة قائمة لا تتحرك ولم يكن ينمّ عن باطنه المائي الحي سوى أنوار بعيدة تخفق انعكاساته في زوايا صغيرة على الحافة، هناك كانت، حتى من فوق الجسر، تبدو تجاعيد دقيقة مضاءة في سطح الماء الأسود كأنها مناطق حساسة لا تزال ترتعش في جثة كبيرة ميتة. ابتعد بسرعة وقد صدمته رغبة مفاجئة - حين نظر إلى الأسفل حيث النهر الجامد دونما نأمة - في أن يستجيب إلى ما خُيِّل إليه أنه يدعوه. كان واعياً ولكنه لم يستطع السيطرة على ذلك الشعور الأسود المنبثق من زاوية خفية والذي دفعه، للحظة مريعة، إلى الاستجابة، لم يفعل، واستمر النهر في نومه.

كان يلهث بضعف، وعرف الآن أن ذلك كان شعوراً ينتابه دائماً حين النظر من مكان عال إلى الأسفل. الرغبة في التحليق المفاجئ، في السقوط المفاجئ. ولكنه في هذه المرة لم يكن ذلك فقط. فقد اشترك النهر مع أنه كان يبدو منفصلاً وغير مبال بأي شيء، في اجتذابه بواسطة ذلك الشيء المخفي في مكان ضائع من نفسه هو. ولكن نتيجة ذلك لو حدثاه كانت ستكون موته. هل كان ذلك الشيء الضائع نفسه إذن يريد له الموت؟ هل كل شيء في نفسه يريد موته وليس موجوداً فيه إلا لأنه لا يستطيع الانفلات من داخله، وبذلك ينتظر لحظة سوداء كهذه لحظة يجتذيه فيها شيء خارجي غامض كالنهر - لينطلق ويدمره ويلقي به في النهاية الثانية الموجودة

Twitter: @ketab_n

أسفل أقدامه؟ عناصر مجنونة! وفي داخله، وسار حاملاً إياها في جسمه، كسوائل تتحرك في وعاء، في جسمه. في وعاء في جسمه، انقلب الشعور بذلك مريحاً فجأة، وفارقه الاضطراب المميت الذي سيطر عليه قبل لحظة. وأخذ يشعر بآخر غشاوة من الكحول تتسرب من بين فراغات أسنانه المغلقة في بخار أبيض خفيف.

برزت أمامه، بين البنايات المتلاصقة كنساء سحاقيات، رقعة منحلة من السماء، فجأة، وحدّق جيداً في صحوها البارد الذي كانت فيه نجمة مريضة تربط نفسها برؤوس العمارات بشبكة ضعيفة تأتي عن اللانهاية، مهزوزة وتجعلها تبدو - من أثر الاجهاد - كأنها تتحلل وتتلف. ثم اختفى عنه المنظر ولم تعد هناك، من ثم، غير جدران، وغير أبواب. ولج الممر المظلم للعمارة التي تسكن فيها أخته مع أولادها وزوجها. سيدخل ببطء يدان وقدمان لشخص ما عيناه اللتان سترسلان نفسيهما، كسائل خيالي إلى عهدة عينين لآخر. عيني شخص آخر. عيني شخص. عيني شخص آخر: والخروج، والدخول، لم ينته إلى الأبواب، الأبواب، الأبواب، تنتظر، ومن خشب. لا. هذا حديدي، بارد، باب، بارد، لا يشجع الأصابع، ويدان تدخلان أولا، تلمسان، لا يشجع على اللمس، مدير مدرسة أبيض، لا يلمس شيئاً، وعينان لشخص يدخل، وهكذا يرسل عينيه إلى عينين لا تعرفانه، وبعد ذلك يخرج ويرسل إلى البيوت عيوناً جديدة، تدخل العيون من النوافذ وتجلس في الكراسي. تسيل العيون فجأة من أبواب البيوت ويمتلئ الشارع، تلتصق بأرجل الفتيات، في داخلي حيوان كبير يلد العيون باستمرار. تسعون عيناً تنتظر، والجدار يستقبل عينيه، يستقبلها: تتسطحان عليه

Twitter: @ketab_n

كيدي طفل، ويجري ماء أسود إلى الأرض، ماء عينين.. محجران فارغان، ورأى دائرة الجرس البيضاء تتألق في دائرة مظلمة أكبر منها: وابهمامه يسير إلى مصيره، كجندي، يسير الجندي إلى مصيره، مصير ابهامه كجندي الجرس كابهامه إلى مصيره. جنديه كالمصير في جرسه، وابهامه يغطي أخيرا بحيرة دائرية، عيناً بيضاء صديقاً أعمى.

شن ن ن ن ن ن ن ! شن

ن

ن

ن

ن!

ليل، ثم انفتح الباب.

(نشرت في مجلة الكلمة العراقية، الحلقة الثانية (مارت) ١٩٦٧، السنة الأولى)

Twitter: @ketab_n

الحَافّة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

١. روابط خاصة غير متينة

كان داود عبد المسيح (في الثالثة والثلاثين، بدلتان، وزوجان من الأحذية، وثلاثة أربطة للعنق، وعم واحد، وابن واحد، وتهدل في زاوية فمه اليسرى لأنه يضع السيجارة - منذ أن بدأ يدخن في الرابعة عشرة - هناك دائماً) مع الفتاة عندما فتح الباب وفوجئ، بوجهه الذي نبش التوتر قسماته، وهو يحاول ما كان يحاوله. ولم يكن قد فعل شيئاً، تقريباً، عندما ساقوه إلى البيت وأقنعوه، تحت تهديدات بالسجن مشار إليها خفية، بأن يتزوج الفتاة. وهذا ما فعله، ولكن ذلك حدث منذ تسع سنين. وهو إذ يراقبها الآن (غير ما كانت عليه، جلد يتغير بإستمرار ويتغذى بحاسة خشنة هي أبعد ما تكون عن الأنوثة، ونشاط رتيب يسير وفق الموقف والوقت والحاجة) يشعر بغيظ لأنه لم يغتصبها. والواقع أنه كان في الأيام التالية لذلك، أبعد ما يكون عن الفكرة. وافق بخضوع، أو الأصح بقليل من التظاهر بالطيش. ولكنه كان يشعر بالفضول لخوض تجربة ناقصة ذات حدين: فعل لا شرعي يصير شرعياً. ولكن بين الحالتين كان هناك فراغ يرشح بالحيرة. وهذا ما كان يبقيه ذاهلاً أحياناً. لم يعرف قط ماذا كان محتملاً أن يحدث. وربما كان هذا هو السبب

Twitter: @ketab_n

في أنه كان ينام معها وهو يحس دائماً بأنه مطلوب في مكان آخر، وبإلحاح. على أنه كان موزعاً، كقنينة تقتسمها أيدٍ عدة. حتى رأى وجهه ذات يوم في المرآة. كان وجهاً خاصاً برجل يمضي حياته كلها وهو يعطي إنطباعاً أينما حل بأنه لم يحلق ذقنه جيداً، دائماً ذقن غير حليقة. ورجل يبدو عليه أنه لم يتمم المراسيم الكاملة التي تخوله الخروج إلى العالم: أي ذقن نظيفة. وهذا ما كان يبدو مستحيلاً. ثم فتح ستوديو للتصوير الفوتوغرافي (كان يرتعش تحت وطأة المغامرة لذة وقلقاً) بعد أن أخذ يشعر بأنه فريسة للعمل المرهق الطويل الذي كان يؤديه، والذي أصبح أخيراً، وقبل فتح الستوديو بأسابيع، كابوساً. والتقط صوراً لزوجته وإبنه الصغير وعمّه ووضعها في الواجهة، وصورة لزواج أحد أقربائه البعيدين. ثم أخذ ينشغل، مبهوراً بإكتشاف إعتيادي: أن أي شيء (فتح ستوديو أو مقهى أو...) يجد جمهوراً مجهولاً ولكنه موجود على الدوام. وهكذا خلقت هذه العملية السحرية الإتصال بينه وبين أناس يحملون وجوهاً لم يرَها حتى في أحلامه. واستأجر رجلاً كهلاً كانت الأحماض قد شوهت أصابعه وعنقه وعينيه (أجفانه بالأخص، كانت تحيط بعينين زرقاوين باليتين كأربع حراشف من جلد)، ثم دفنه داود بيديه بعد شهر واحد فقط (لم يقبض الرجل حتى راتبه الأول). لم تكن له أية عائلة أو قريب أو حتى بيت. كان يعيش في فندق، وكثيراً ما ينتقل من فندق إلى آخر. ونسيه داود بسرعة بعد أن حزن عليه قليلاً. ولكنه صدم عندما راودته فكرة أن المصور الميت لم تكن له صورة، وهذا شيء مضحك، ولم يحدثه عن محل للتصوير افتتحه لنفسه في يوم ما، ولا عن أي شيء يضيء

Twitter: @ketab_n

فترة ما من حياته، بالرغم من أنهما كانا يتحدثان في العادة. ثم حاول أن ينساه تماماً عندما قال له صاحب الفندق أنه يعرفه منذ مدة طويلة وأن المصور معروف بشذوذه. وحين نظر إليه داود، شاهد على وجه صاحب الفندق نظرة عجيبة. أراد أن يفعل شيئاً سريعاً فذهب بزوجته إلى السينما. وفي الليل أرقدا الطفل في مكانه وحاول داود، كمن يخطو في منطقة غير آمنة، عندما بدأت زوجته تخلع ثيابها، أن ينظر إلى جسدها وهي واقفة. عارضت، ثم ضحكت بتوتر. ولكنه أحس في أسفله بالشهوة تلبطه كموجة كبيرة من سائل صافٍ أخذ يمرر حركته في جسده المقوس تحت ثقل أشفاقه. وأخيراً رسبت بقايا رغبته في زاوية، في قاع مغمور بإنعكاسات الماء. كانت زوجته، التي تتخفى بحركة تشبه حركة نبات طويل يميل على عُقده وأوراقه، تحمل على وجهها تعبيراً من الشحوب والإشتهاء كان يرشح على بطنها وفخذيها، وكأنها رغبة مترددة تمتزج باليأس وتتوقع فشلاً مسموماً. أشغل نفسه واندفع بسرعة نحو جسدها محاولاً أن يغطيه بعناقه. وأثناء تحديقه في عينيها البعيدتين، كان يفكر بأن ذلك يحدث دائماً، لأنه في الأصل يريد أن يغطيها فيطبق بأعضائه عليها في كل مرة ويحاول أن يمتزج بها لينسيها تلك اللحظة: وقوفها وحيدة وعارية على حافة السرير. ولكنه لم يستطع أن ينسى المصور الميت.

بالرغم من أن كل شيء آخذ بالتحلل. ببطء. الأفعال تبدو حادة وبشعة في وقت وقوعها. بل يبدو أنه لا شيء له وجود غيرها، تتنفس وتغطى وتتمطى. وأحياناً يحدث هذا بشكل متهور وتدريجي، ولكن التحلل يستمر، الفعل أيضاً يستمر. ببطء، كل

Twitter: @ketab_n

شيء ببطء. لقد أخذ يذهل، ويقف ويداه في الأحماض أحياناً، في ظلام غرفة خلفية، في شارع ضيق، في مدينة غريبة. وهذا بدوره يحدث ببطء. ويخرج نهاراً من الغرفة الخلفية. يغلق بابها محاولاً أن ينفض عن ذهنه، حتى في أثناء ركوبه الباص، فكرة أن المصور الشاذ، الكهل، الميت، لا يزال فيها، منحنياً على حوض مليء بماء كيماوي مُلوَّن، يبتسم. ثم دخلت عليه هذه الفتاة (أو المرأة، بترهل ذراعيها، والتقوس المتهدل قليلاً في استدارة ردفيها)، وعرف بعد مدة أنها تتعامل مع مصورين لأخذ صور عارية لها وبيعها في السوق السوداء. ومرت عليه، فسمح لها بأن تعرض جسدها الذي أشعره (كان قد بلغ الفترة التي يستطيع فيها أن يحتفظ بتسلسل أفكاره عن الستوديو وعملائه حتى وهو مواجه بحضور زوجته العاري) بالرغبة في السفالة، وألقى به وسط يقظة شاذة كان وعيه فيها يختطف صوراً وكلمات وتفاصيل وأشياء (كرأس قرد من المطاط أحياناً، أو قطة تقضم رأس سمكة) لا علاقة بينهما. وباب غرفة الستوديو المغلق، في الأعلى، ووجهها الذي صدمه فيه الشحوب المراهق الذي كان ينتشر على جلد زوجته أيضاً حين كانت عارية، آنذاك، على حافة السرير، كمخلوقة بدائية تنتظر على حافة نهر لتهبط فتسبح. ولكنه بعد أن نهض وأخذ يشعر بالكراهية لها طلب منها، أن تعيد خلع ثيابها التي كانت قد ارتدت نصفها. وأعد كاميرا صغيرة لالتقاط صور لها وهي عارية. واحتفظ بالصور في كتاب أجنبي عن الفن الفوتوغرافي لم تلمسه بعد (ومن يفعل) يد أحد غيره. ولم يكرر ذلك، وكانت بغياً طبيعية ثم أخبرته بأنها كانت تعرف المصور الميت («لا لا!» قالت، عندما رأته يعي

Twitter: @ketab_n

فجأة. وأزالت وهمه، فالمصور العجوز كان يهيء لها «فرصاً» فقط: فهو معروف - «بماذا؟» قال داود، وحدق فيها بقسوة). ضحكت (كان هو الذي عرفها بداود)، وحين نهضت، نظر إليها نظرة عوضته عن التلفظ بكلمة «بغي» في وجه البغي التي أشعرته بشيء أخذ داود، فيما بعد، يبحث عن حقيقته لأول مرة. وامتلأ بندم فظيع بعد مدة، كما تمتلئ الغرفة الخلفية بروائح الأحماض إلى حد غير محتمل. ثم فوجئ بتيار من الوعي ينير داخله ثم يتكوم هناك، متيحاً له فرصة طويلة في أن ينبشه باستمرار وينفضه في داخله كمادة جيرية تضيء حالما تحرَّك. لماذا كان، ماذا كان يفعل في الستوديو؟ كان يقوم فيه بعمله، ولكن الرغبة آخذة بالتحلل. والعمل نفسه يغدو هرباً. والأحماض السامة تدخل إلى مسامات جلده فتوقظ دمه في ارتعاشة غريبة. أخذ يبتعد عن إبنه الصغير، وينظر إلى محاولاته المتكررة للارتفاع (الستوديو، المذخرات التي أخذ ينشغل بها: ولكن الإرتفاع إلى أين؟) وكأنه ينظر من الخارج إلى سحلية مقلوبة تحاول النهوض. تستطيع دفعة واحدة، ولكنها تشغل نفسها بحركات جانبية صغيرة لا هدف لها، وإذا نهضت فإلى أين أيضاً؟ كان هذا هو الفراغ الذي برشح بالحيرة. ولأول مرة أخذ يتوغل في منطقة جوها شبيه بجو الغرفة الخلفية. مع حركات يديه وهو يعمل، الإدراك البطيء الذي ينشر نفسه في داخل رأسه كطبقة من النسيج، في جميع علاقاته بآخرين (قليلون، لذلك يبدون واضحين جداً الآن) وفي محاولاته جميعها وفي كل شيء فعله حتى الآن كان يجرب الوصول إلى ما لا يعرفه الآن إلا بغموض. وحين وقف في المرآة (تلك المرة)، شخصاً طويلاً غير مهم في

Twitter: @ketab_n

نظر أي كان، لاحظ أن له أسناناً نظيفة. ولرعبه من التسلسل المشدد الذي أصبح لأفكاره أخذ يضاعف تدخينه. ورأى زوجته (كان مريضاً ذات صباح خريفي وأخذ ينظر من النافذة إلى الخارج) تعود من السوق، إمرأة تتغطى بملابس بيتية وفي ساقيها شعر طفيف لا يلحظ الا من قريب ومن يديها تتدلى سلة للتسوق تجر معها جزءاً من كتفها إلى الأسفل وتجعل أحد نهديها أوطأ من الآخر. حاول أن يخرج، لاهثاً، ولكنها كانت قد دخلت. ولم ينظر إليها. وخرج في المساء وهو يشعر بإنفصال إجباري من الجميع (ربما كان واثقاً في باطنه بأنه يعيش بينهم الآن بصفة مجهول). وكانت أسنانه نظيفة، وأي رجل له بدلتان ومذخرات قليلة مثله وملابسه الداخلية مصنوعة بيدي زوجته أو أخته، سيضحك، واقفاً دائماً في زقاق ما أو باب دار مؤجرة، بأسنان نظيفة لا حد لنظافتها، لأنه لم يأكل إلى حد أن يكون لأسنانه عالمها الخاص من الأطعمة والإنشغال بالتهيؤ لملاقاة مذاقاتها جميعاً في مواعيد الأكل. («جن، جن!» سيقولون. ليفعلوا). واستمر يدخن ويرى نفسه يأكل خضروات معروفة بالنسبة لجميع البشر في العالم وأطعمة لا تتجاوز الأنواع الثلاثة التي تتعرف عليها معدته سنة بعد أخرى، ولذلك تبقى أسنانه نظيفة وخالية من الديدان. ولم لا؟ وخيل إليه أنه يرى حياة كاملة في لحظة غضب ويأس. وشعر بيقين تام بأن جسده له الحق في أن يتحول، ولكنه لا يتحول إلا نحو الأسوأ: يشيخ ويتجعَّد ويجف. ولكن من الممكن (فكرة أقلقته بعمق) أن يتحول بشكل آخر ويغير بذلك كل شيء: وإذاً فلن أكون عندئذ (نتيجة لذلك) موجوداً في هذا الستوديو بل في مكان آخر. كان ذلك

Twitter: @ketab_n

ممكناً جداً. هرب، وذهب إلى سينما في النهار. ثم انتابه شعور تحول إلى مرض. وبقي في الصباح يراقب من سريره المرأة التي كان قد حاول مجرد محاولة أن يغتصبها ذات يوم. إلا أنه أطبق، كما يطبق غلافي كتاب، شقيّ ماضيه وحاضره: الإغتصاب الذي لم يحدث التحم بالصلة الجديدة بالمرأة التي تحمل معها آثار محاولته، أي بالزواج. وفي أعماقه الجاهلة التي كانت تغلي بالحقارة آنذاك، كحساء رخيص - ماذا كان يحدث؟ وبثقة (ومع تدخين شره مستمر رغم مرضه): «كنت أريد أن أخترق هذا الجدار الذي يقف في وجهي بطوله كله، لا غشاءً». أدان نفسه. وأخذ يضعف. وفي فترة قصيرة استحال الجدار إلى صوت: كان حاجز من الماء موجوداً باستمرار بينه وبين نفسه، بينه وبين الزوجة، بين الابن، بين السرير، بين النسخة التي تعيش في ذهنه عن المصور الميت. «أردت أن تغتصب، ليس لحمها الأبيض المراهق في ذلك الحين، ولكن اللحم الذي يؤكل الآن من قبل أفواه أخرى غريبة عنك. تغتصبه ويكون لك بذلك الحق في أن تعلن وجهك وتسير في الشوارع المضاءة». ولكن صورته (رجل متوسط العمر، مريض في غرفة عائلة صغيرة بدولابها وكراسيها وصورها المقدسة) جعلته يتقيأ. ثم دخل مستشفى. وحين تحسن اكتشف أن جميع ممرضاته بغايا منظمات بشكل متفاهم عليه من قبل الجميع. ولم يلاحظ أن المستشفى غارق إلى نصفه تقريباً في الأرض (قريب من النهر، ولكنه جاف المظهر وكالح جداً) وانه كان إصطبلاً للخيول في العهد العثماني - الا يوم خروجه.

Twitter: @ketab_n

٢. الشطرنج

قبل أن يموت عمُّهُ بأشهر، أخذ داود يتردد عليه عدة مرات في الأسبوع. ويجلس قبالته، محدقاً في مربعات الشطرنج التي تحرك عليها أصابعهما وزيراً خشبياً أو فيلاً أو جندياً عادياً. ويموت جنود الشطرنج بكثرة، فهم لا يستطيعون الحركة إلا نحو الأمام. ويقتلون بحركة إنحرافية نحو الشمال الشرقي أو الشمال الغربي. وفي هذه الحدود، كان مصيرهم معلقاً بهجمة عمياء من فيل خشبي يندفع من سكونه فجأة، أو من حصان يتحرك، ناظراً إلى الأعلى، في نصف مستطيل من المربعات، ويهوى على ما يصادفه فيقتله. والعم كان يهيئ الشاي بنفسه حين لا تكون المرأة القصيرة موجودة. وبينما داود ينظر إلى المرأة، كان يحسُّ بأنه يتنفس في نهاية شفقة دبغت داخله وأنهكته حتى وجدت لها منفذاً. ولأن الرجل (كان وجهه الشبيه بقفل كبير ينحني في غيبوبة مرضية تحت صورة له ولأخيه - عبد المسيح، والد داود - مع رقيب إنكليزي أشقر، يرتدون ملابس الحرب) كان يحتفظ بهذه الثغرة في حياته بإستماتة، ويماطل ويتكدر وجهه فيطفو فيه عناد حياة كاملة حين يذكر الموضوع أمامه - فقد فضل داود، بل رأى ألا إحتمالَ هناك غير ذلك، أن يتجاهل وجود المرأة. من كانت؟ لا يهم. ولا بد أنها كانت تامة الغربة، والا لما ربطت وجودها به بهذا الخضوع. وتمر صامتة، خفيفة الوطء دون أن تلقي ظلاً على الرجلين الجالسين أمام مصغرات خشبية لحيوانات تضطجع على ظلالها المسائية الدقيقة. ومع حركة يده، كانت عينا داود تشعران، إذ تتحركان في داخل رأسه، بآثار الماء والصابون حول أجفانهما

Twitter: @ketab_n

الرخوة التي بدأت الأحماض تؤثر عليها أخيراً. ويهبط شيئاً فشيئاً إلى الوهدة التي يجاهد أن ينسى وجودها بصورة تامة. ولكنها حاضرة، فارغة، تنتظر أن تمتلئ. وملأتها فجأة: صورة الرجل الجالس أمامه مع المرأة القصيرة، في هذا البيت المتشبث بأقدام المدينة. كان عمُّه، بواسطة المرأة، يحتفظ بارتباطه مع مصدر مجهول لعله المصدر الوحيد الذي يمنحه المقاومة في وجه المرض والعجز: كانت المرأة دليلاً يستدعي القلق، وأحياناً العار، ويفرضهما على الناس الذين ينظرون إليه: رجل عجوز يحتفظ بإمرأة غريبة في بيته بصورة مشبوهة. ومع حركة مائلة لفيل يجري حتى حدود لوحة الشطرنج كالأعمى - «إنه يغتصب الركود المفروض على حياته التافهة، بواسطة هذه العلاقة غير الشرعية» - نظر إليه الآن بإرتياح، «نفس ما كنت أريد أن أفعله. لقد اغتصب فجوة في جسد من الحجر، وجعل منه ملجأه الذي يتشبث به ويختلس منه النظر إلى العالم المخيف، كجرذ يطل من ثقبه على قطة عدوة». وفكر داود بيأسه الذي داهمه، وبالستوديو. أصبح يقيناً أن هذه الرابطة المشتركة بينهما (بينه وبين عمِّه)، هذه الحاجة إلى نوع خفي من الشر، هذه ضرورية وترتبط في جذورها (كاد يشهق حين اصطدم بالفكرة) بالجنس. وأيضاً: أن هذه هي العلاقة الإيجابية الوحيدة، طالما أن كل ما عداها معناه أن لا تفعل شيئاً هو أن تغتصب. أخذ يشعر في النهاية بأنه مذنب، لماذا؟ وبصمت، ينظر إلى وجه الرجل الجالس أمامه، وينهض فيضيء المصباح. مذنب، يشعر بأنه ينتظر أن تفرغ كمية الدناءة التي يحس بها تملأ قاعه السفلي كالزيت. وكالزيت، هي التي تمنحه الطاقة

Twitter: @ketab_n

على هذا الانتظار. ولكنها لن تنفذ، طالما أن الشيء الذي يفجر هذا الزيت الكثيف في داخله لم يتحقق وبذلك لم يستنفد نفسه. لم يحدث شيء ما. ومهما حدث، يبدو أنه لا شيء يغيِّرُ شيئاً. واذاً فقد كانت الحاجة عنيفة. ولعلها (كيف أدري؟) هي نفسها التي دفعت اليّ بسعاد المتعرية لمصوري السوق السوداء. وهي نفسها التي تفرض هذه المرأة المجهولة على عمّه المريض. ونهض من مكانه. وبينما كان يهبط من باص مهجور كان فيه رجل شاحب جداً يتقيأ تحت مقعد مقابل - كان عمُّه يموت بهدوء قبالة المرأة الصامتة التي كانت تحاول أن تشفيه بإرادتها، وقد تجمّع جسمها الذي بدا صغيراً وخائفاً على حرف السرير. وبدأت تطوف حول رأس المريض روائح رجل ميت.

٣. طيور وزجاجات بيرة

الماء، وكان رأسه قد طفا فوق مستوى الماء لحظة ثم غاص وارتفع ثانية، هذه المرة بجمجمة شبه عارية، لأنَّ الشَّعَر بدا خفيفاً جداً كقطن منسول حينما ابتلَّ. وظهرت الجمجمة كيقطينة فارغة تطفو في الماء. وعلى الرمل أخذ الصبي يركض فجأة. وكان قد ألقى بالقرد الصغير المصنوع من البلاستيك على حافة البحيرة فأخذ القرد يترنَّح في الماء ببطء كجثة غريق. وسبح عمُّه طويلاً. وبالرغم من نحافته فقد كان قوياً. وحين هبطا إلى الماء لأول مرة، شهقا بقوة. ثم اندفع الرجل العجوز مع موجة كبيرة ارتدَّتْ من الشاطئ نحو الداخل، وكأنما تمشط الماء يد ماردة منفية عن الوجود. ووضع داود عينيه مع المستوى الغامض الذي كان يميل

Twitter: @ketab_n

حتى حدود السماء كقطعة واحدة من مادة سائلة شفافة، ثم غمرها ببطء، ببطء، ببطء، وانحسرت عنه المياه بحركة مفاجئة حين أرعبه الصمت التام، المطلق في داخل الماء. ونظر. كان الرجل الآخر قد ابتعد عبر الماء محركاً ذراعيه بتراخٍ، ورأسه لا يكاد يرتفع عن السطح، ثم حاول أن يعود ولكن رأسه ظل طافياً كما في السابق لحظات، ومن الواضح أن رجليه كانتا تجذفان في داخل الماء ليبقى طافياً فيريح بذلك ذراعيه. ثم خرج الرجل العجوز من الماء واضطجع فوق ظهره وهو يحدق في العلاء ويتنفس بصعوبة. كانت بالقرب منه زجاجات بيرة فارغة. وتحت ظل السيارة طيور مائية تنتهز فرصة غيابهم لتأكل بقايا الخبز والبيض والفاكهة التي كانت لا تزال فوق المفرش المنشور على الأرض. وقال الرجل العجوز لداود: «عندما كنت أتضور جوعاً في شبابي، لم أكن أحلم إلا بأن أسبح، وأسبح، وأسبح، ولا أنتهي من السباحة». وسعل بضعف، ولكن وجهه كان يضحك بصمت وقد جف الماء المالح على جلده فأعطاه بذلك لون فاكهة فجّة. وظهر الصبي قربهما، ثم اندفع وهو يصيح نحو كومة الطيور البيضاء التي كانت منشغلة تحت ظل السيارة. وطارت ثم هبطت بأجنحة مفتوحة على حافة الماء. وكانت طيور أخرى تحلّقُ على بعد قليل من الحافة، وبعضها يصدر عويلاً غريباً. وأشار ابنه فجأة إلى شيء يطفو فوق السطح، ويبتعد ببطء شديد مع انحسار موجة. وقال وهو يقفز: «القرد. القرد».

سبح داود ورأسه طافٍ، والماء يغطي جسده حتى العنق - في نصف دائرة وهو ينظر طيلة الوقت نحو الدمية الفارغة التي كانت

Twitter: @ketab_n

تطفو كمهد طفل مستسلمةً للماء. واقترب منها وقد شعر بقواه تضمحلّ. ودخل أنفه ماء فأشعره بالتشنُّج. وكانت اللعبة طافية على ظهرها، وقدما القرد تشيران بأصابعهما المطاطية المتلاصقة نحو السماء وبين ذراعيه أكورديون يتصل بتكوينه المادي نفسه، ملتصق بيديه، وفي نفس الوقت يمثّل صدره. وكان القرد يعزف وعيناه الحزينتان (اللتان لم يكن داود يراهما بل يتخيلهما بينما هو يحفر براحتي كفيه تربة الماء الرخوة الثقيلة) كانتا تنظران إلى الله دون أن تعبرا عن شيء وكأنه يريد أن يريه نفسه الغارقة دون أن يستنجد به، دون أن يعترف بغرقه: كانت هذه الصورة ملء أعصابه التي كانت ترشح الآن، بخوف جاف جعله يفكر بأن يصرخ. ولكن الرجل العجوز كان بعيداً، ضائعاً في حدود الماء. وبعد قليل كان يدفع أمامه القرد الذي لا يزال يعزف لحنه غير المسموع. ثم قلبه داود على وجهه في الماء وأخذ يدفعه أمامه بمهل. وصدمته الفكرة الثانية، فقد كان الايحاء قوياً، كان القرد قد كف عن أمله في آخر الأمر، وأخذ يحدق بعينيه في أعماق البحيرة - ربما ليرى القاع، وقد قلب ظهره القصير للسماء واستسلم للموجة التي كانت تحمله، ووضع ثقته المتبقية في أكورديونه الصامت الذي كان يجعله الآن يطفو بإنحراف. واستلقى داود على الساحل وهو يشهق بقوة كانت تجعل جدران حنجرته تلتهب بالهواء المار إلى الأسفل حيث رئتاه المتشنِّجتان.

وتناول الصبيُّ قِرْدَهُ المبلَّلَ وأخذ يمسحه بجسده العاري وهو يقهقه. وعلى حين غرَّة كان الحيوان الصناعي المفرغ من الحياة قد تلبس نفسٍ حالة الرجل العجوز الذي كان يضطجع على الرمل

Twitter: @ketab_n

هادئاً، موحياً بأن الموجة القادمة ستكتسحه ثم تجرفه معها كدمية فارغة من المطاط. ولم يستطعْ أنْ ينفِّسَ عن الرغبة التي راودته في الصياح بأقصى إنفتاح لفكيه، للماء، والطيور، والشمس، والحافة، دون هدف، دون هدف، مجرد أن يصيح ويتقلَّبَ في الماء ولا يعود أبداً إلى الفاصل الذي كان يقدم إليه الأمان دائماً: حافة اليابسة. كانت هي المرحلة (أو، ماذا هي؟ حد؟ وهل هناك حدودُ في هذا الفراغ؟) التي يقف فيها الآن، غائصاً في زيتها حتى صدره، عدم الأهمية بالنسبة لكل ما هناك، عدم الأهمية مهما سبح، وتحدث، وعمل، وأكل، وشرب، ويئس. وكان عمُّه قد ترسّب في هذه الحالة طويلاً، وأخذ يطفو على سطح أيامه الباقية كفليتة لا أهمية لها، تترجح حسب تموجات السطح وتبقى طافية حتى ينحسر الماء ويرسب بها إلى القاع الذي يبقى وحده بإنتظارها، صلداً ولا شيء آخر بعده. وحين ارتدى ملابسه كان الرجل الآخر قد نهض ومشى نحو السيارة كشبح خفيف من الجلد، وأخذ يتحدث مع الصبي بإهتمام. وفي طريق العودة خطر له أن هذه الحالة التي يعيش فيها الآن هو وعمّه، وكان يعيش فيها المصور الميت، وتعيش فيها زوجته - هي نفس الحالة التي اتخذها القرد حين يئس من عزفه الذي لا معنى له، ورقد على وجهه الضيق وهو يبحث بعينيه عن الأرض البعيدة الكامنة تحت كتلة المياه. ولكن عمّ يبحث، وهو في هذه الحالة التي كفَّ فيها حتى عن الرغبة؟ لم يكن يعلم. وعزم على أن يحاول القيام بنزهات أخرى في المستقبل للسباحة في البحيرة.

ولكن أين يسبح عمُّه الآن؟ هل وجد المكان الذي كان يحلم

Twitter: @ketab_n

به في أيام شبابه البائس، حيث يستطيع أن يطفو في مياهٍ لا نهائيَّة ويتقلَّب فيها دون أن يكون له همّ آخر، في المياه الشاسعة، النظيفة، الصامتة، العميقة، يستسلم لها ويغمض عينيه في سلامها الغريب، ويسبح، ويسبح، ويسبح؟

(نُشرت في مجلة حوار العدد ٢٦-٢٧، بيروت ١٩٦٧)

Twitter: @ketab_n

النورُ ضعيف في السادسة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قضيتُ أربعة أيام في شقة المرأة، ثم هربتُ. حين استيقظت في سرير الفلاّح لم أجد في الغرفة أحداً . نهضتُ من السرير فرأيت في النافذة رأس حصان. وحرّك الحيوان عنقه الطويل فاختفى الرأس وراء حافة الجدار. غسلت وجهي ثم مشّطت شعري ببطء وأنا أحاول أن أمدِّدَ الوقت بأية طريقة. لكنني أحسست بالضجر من العملية فارتديت ملابسي واحترت ماذا أفعل قبل الذهاب، هل أقفل باب الغرفة وماذا أفعل بالمفتاح؟ كان الفلاح غائباً وخمنّت أن العادة أن يُترك الباب مفتوحاً. خرجت ووجهتي الميناء. لكن الطريق كانت طويلة، لذلك انحرفتُ في مسيري وسرتُ قليلاً حتى انخرطتُ بخطواتي في الطريق العام، وأخذتُ أنتظرُ عبور سيارة. ظهرت واحدة بعد قليل.

وفي الميناء هبطتُ. ماء شاسع، نظيف. وشممتُ بكلِّ عروق أنفي. لقد انتظرتُ زمناً طويلاً لأرى هذا المشهد. تجوّلت قليلاً من غير ما هدف، وقد ملأني الشعور بجوار الماء. وفي البيوت القديمة التي كانت تنحني على الماء كحيوانات مسنّة منهكة، ميّزت حياة سرية تجري رغم كلْ شيء. وجرفتني الرغبة. لاشكَّ أنني كنت أبدو صغيراً غير نافع، كقوقعة فارغة، وأنا تحت أنظار البشر الذين كانوا

Twitter: @ketab_n

مستغرقين في عملهم، هناك. دخّنتُ قليلاً ثم شعرتُ بجوع وتذكَّرتُ وجوب تناول بعض الطعام. وهل أقضي الصباح في المدينة؟ لِمَ لا؟ وهل أفعل شيئاً خارقاً، فظيعاً إذا أمكنني ذلك؟ لِمَ لا؟ لِمَ لا؟ سرتُ بخفَّة وأنا أشعر ببدلتي تؤالف ما بين حركاتي وتنسّقها ضمن نفسها كالغلاف.

اقترب رجلٌ من المقهى، سأل أحد الحاضرين بلغة أجنبية. لم يفهمه. وحرّك رجليه باتجاهي، كانت له لحية شقراء. وقبل أن يتفحصّني، صدمتني فكرة سارّة: أنه بحّار أجنبي.

- نعم، أعرف الإنكليزية. تفضّل.

جلس بمرح. وانتظر حتى أنتهي من طعامي.

- في الواقع، كنت أريد أحداً أكلّمه.

قال وهو يتبتسم، وأكمل:

- صديق. أنت تعلم.

- نعم.

قلتُ، ونهضتُ. في الطريق قال البحار السويدي فجأة:

- هل تعرف في هذه المدينة مكاناً؟

ومرّ بيده على صدره وفخذيه، بحركة غير واعية. - «فيه نساء؟»

- تقصد بغايا؟

وارتقبت إيماءته- عرفته: من حثالة أوربا.

وضحكت: - غريب، اسم البحّار يرتبط دائماً بالبغي. دائماً!

شاركني ضحكي ولحيتُهُ تهتزُّ كنشارة ذهبية.

- تعني في الأفلام أليس كذلك؟

كفّ عن الضحك، وأجابني باقتضاب:

Twitter: @ketab_n

- البغايا قدر البحّارة.

وأشرتُ مقترحاً إلى بيت واطئ كانت نوافذه مغلقة في وجه الصباح. وذهب خطوة، ثم:

- هل جرّبت المضاجعة صباحاً؟

سألني فجأة، وتركني في مكاني لا أعرف ما أجيب به عليه.

ماذا أفعل هنا؟ أزحتُ السؤال إلى جانب مؤقتاً، وكانت رغبتي قد تدّلت الآن في داخلي، هشّة وفارغة. لم يكن الماء يفيدني في شيء. والآن وقد ابتعدت عما كنت أكره، لم أعد أشعر بالحاجة إلى التساؤل. وهل أفادني القرب من الميناء الذي كنت أحلم أن اقف فيه ليلاً؟ وما جدوى أن أكون وحيداً تماماً؟ لقد أردت ذلك.

- ذلك ما أريده الآن أيضاً.

ردّدتُ في نفسي بعزم، ساحقاً قلقي كنملة. وكنت قد تجوّلت طويلاً وجلست في ثلاث مقاهٍ. وحاولت أن أتحدث إلى أشخاص عديدين كانوا يحيبون على أسئلتي جميعاً بألفة مصطنعة تشعرني حالاً بأنني غريب، وفي تجوالي، ظهر لي بشكل مؤذ وعنيف ذلك الدمّل الذي كنت أحاول تغطيته في المدينة الأخرى؛ هنا، أيضاً، توجد الدناءة والخصومة ولكنني لم اشتبك بعد لأنني قررتُ الاستقرار، ليس إلا. هنا، أي شيء كنت أتوقعه إذن؟

وشعرت بالدناءة تغمرني مع إحساسي بالشبع - فلا ريب أن الغداء كان جيداً..

رفع الماء حرارة زيتية لفحتني. وحملتني الخطوات البطيئة إلى حيث فارقني البحار السويدي قبل ساعات، محتكاً ببدلات بشرية وشامّاً روائح قُمامة تطفو فوق الماء، وانعطفت، وكأنني أسير

Twitter: @ketab_n

عائماً، إلى زقاق كانت فيه امرأة مُلفعة بعباءة تخاطب رجلاً لم اتبيّن وجهه.

خرجت ثانية إلى الطريق المنفلت من المدينة نحو القرى. وحين عدت، كان الباب لا يزال مفتوحاً والحصان منهمكاً، وقد خفض عينيه، يمضغ محتويات كيس كان قد ربط حول فكيه الطويلين. وقبل أن أدخل، رأيت ساقَيْ سروال تتّصلان بحذاءين غاليين. ورأيته.

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

ولم أدهش كثيراً. ولكنني عجبت من شيء:

- كيف عرفتَ مكاني؟

- وهل لك مكان آخر؟

أجابني، ونفث دخان سيجارة في الفراغ. دنيء، دنيء.

لقد فكر بالفلاّح على أنه قريبي الوحيد في هذه المدينة، وعرف. كانت في المنفضة عدة سجائر.

- ماذا تحاول أن تفعل بربك؟

خاطبني بهدوء، واعتدل في جلسته:

- لعبة قديمة لم تأنف من ممارستها! ولكنك عرفت الآن بدون شك أنها لا تفيد.

- ما الذي لا يفيد وماذا يفيد؟

ضحكت بتعب، ونظرت إلى النافذة المفتوحة حيث الحصان الصامت ذو العينين المفتوحتين. قال:

- ستأتي، أليس كذلك؟

بثقة، بثقة يتكلم الغبي. وقلت بثقة مساوية:

Twitter: @ketab_n

- لم تصل بعد إلى حدٍّ أن يمكنك إقناعي.

وكشفتُ عن أسناني:

- لست اكثر من أخي زوجة. ماذا يستطيع أن يفعل أخو زوجة؟

وأخذتُ أبتسم له باحتقار. وعرض سيجارة:

- ومن قال انه يريد أن يفعل شيئاً؟

- إذن ما الذي يفعله هنا؟

ذُهل، لكنه لم يفاجأ بغضبي.

- سأذهب عمّا قليل، ولكنني ذكرتك باللعبة السخيفة، التي كررتها للمرة الثانية. حصل هذا بلا شك، والدليل على وجهك.

- وجهي؟ وطمأنتُ، من الداخل، نفسي لتهدأ.

أخذت أضحك باستهجان. لكنني في سرّي كنت أتساءل بغيظ عن سبب شعوري بالحرج. وقال:

- إنها تنتظر.

لم أجبه. خفض الشاب رأسه.

- انها تنتظر مولوداً أيضاً.

ولم ينظر إليّ. وجدتني أنحرف نحو السرير، كنت قد ذهلت بدوري. وقلت بهدوء:

- سيجارة. أعطني واحدة.

فاشعلها لي قبل أن يعطيها، كما يفعل المرء مع شخص مريض. لم أتكلم، فلم يكن في نفسي، الآن، غير سكوت شاذ مريب. ومشيت نحو النافذة. كانت دائرة من الماء تحيط بعين الحصان الكبيرة.

Twitter: @ketab_n

هتفت وأنا أشير إلى الحصان:

- أنظر إلى هذا الغبي. إنه يبكي.

وأخذت أضحك بهستيريا. لم ينظر إلي. خجلت فجأة.

وافزعني الصمت. صرخت وأنا أنفجر دون أن أملك السيطرة على نفسي:

- ولكن لماذا كان عليها أن تفعل ذلك؟ هل سألتها؟ هل سألتها أيها الوغد قبل أن تأتي لتعيدني؟

وأوليته عينيّ المفتوحتين على وسعيهما. أوليته وجهي الذي تفلّش أخيراً، كتلة ذعر.

- ولماذا خانت بالله؟

أخذتُ أعوي بكل صوتي. فنهض من مكانه وأخذ يحاول تهدئتي.

- لماذا خانت، ألم تقل لك؟ كأية ساقطة.

تحدّيته أن يأتي بأية حركة. وأخذتُ أردِّد أقوالي مهووساً بعذابي الخاص. ثم تمالكتُ نفسي وذهبتُ إلى الزاوية حيث الماء فغسلتُ وجهي.

وقلتُ بصوتٍ مختلف، وبهدوء:

- أنت تعرف كلَّ شيء. وإذا أحسَّ رجلٌ بأنَّ زوجته تخونه فله الحق في أن يذهب بالطبع. أن يسافر نحو الجحيم. أن يلعب أية لعبة يشاء.

ومخطتُ أنفي.

- هيا. سافر الآن.

- وأنت؟

Twitter: @ketab_n

جابهني بعينيه اللتين اختفى منهما الذكاء المصطنع فجأة. وحتى أنه لم يكن يدخن الآن، وكان يتظاهر بذلك ليخفي توتّره ويبدو قوياً بلا شكّ. أحسستُ برغبة جارفة في الاستسلام للشفقة على النفس. ولما كنت أريد أن أندم بسرعة. واجهته. عرفت أنها لحظة حاسمة. ولم أستطع، فتخاذلتُ. وأخفيتُ وجهي في السرير. قال الشاب باضطراب:

- سأذهب. ولكن أرجوك أن تعود، وإن لم يكن معي.

ونخستْ حنجرتَهُ سعلةٌ. كان الصمتُ حاداً. وقف في مكانه دقيقة. ثم ذهب. بقيت راقداً على وجهي في السرير وأنا أتنفَّسُ رائحة جسد الفلاح. وفار في داخلي طوفان ملأ أعصابي فجأة بحاجة عظيمة للتهيّوء. وثبتُ من السرير، فأخذت أمشّطُ شعري بدون وعي. ولم أكن أعرف لأي شيء أتهيّأ، لكنني كنت أستيقظ بكل حواسي. خرجت من الغرفة فذهبت إلى حيث الحصان، عرفت الآن لماذا كان الحيوان المسكين لايستطيع الحركة، لأنه كان مربوطاً بوتد غائص في الأرض. اكتشفت ذلك كأنني اكتشف الوتد الذي ربطوني به، وملأتني رائحة الحيوان المريحة بشجن صبياني. ولكن لماذا فعلت التافهة ذلك وبأيِّ حق؟ وانطلقت أسير دون غاية.

كان الشاب قد اختفى. ودهشت حين فكرت به، لقد بدا غريباً. وماذا كان يفعل في هذه المدينة اللاصقة بالبحر؟ إنه لم يكن مكاناً يتحمَّل ملامح تائهة كتلك التي تجعل من وجه الشاب منفى للسعادة. ولكنه غريب عني الآن، يظهر ويختفي في ذهني كنسخة تمر تحت عدسة الذاكرة. أستطيع أن أجزم أن المرأة الأخرى كانت

Twitter: @ketab_n

كذلك. نعم. بشقّتها الباردة وأعضائها الرخوة. عرفت الآن أنها لم تكن غير وسيلة ساويت عن طريقها نفسي بزوجتي. خنتُ كلَّ شيء بيأس وأفرغت خيانتي في جسد تلك المرأة الغريبة. وانزلقت في حفرة مزروعة ومسقيّة بالماء فقررت أن أجلس على الأرض.

لقد تساوينا إذن. لأول مرة فكرتُ بخيانتي أنا. لقد هربتُ ولكنني لم آت إلى هنا رأساً، بل قضيت أربعة أيام بعيداً عن زوجتي في شقة تلك المرأة. هل كانت هي تعلم بوجود الأخرى؟ لقد شكّت، لقد قتلها الشكُّ. كانت تهتمّ، ولكنها خانت مرة. وكرَّرت ذلك، فسحقتني عندما عرفتُ. هل كان ذلك تشفّياً؟ انتقاماً؟ تساوياً؟

هبط الليل على الميناء. وانفتحت على سطح البحر عيون من الضوء. سفن. ولكن هل كانت فكرة الالتجاء إلى الميناء صدى طبيعياً خرج من أعماق فكرتي عن التحرر، وبواسطتها كنت سأنقذ نفسي؟ كم فكرت بأنَّ الميناء واجهة العالم، تنعكس عليها نظافة البحر باستمرار فتخلّف بذلك، دائماً، الحاجة إلى الاغتسال والتطهّر من أدران المكان، وذلك بمجرد الوقوف أمام المدخل المائي والامتزاج بالحركة الوافدة من البعيد: السفن والمسافرون والماء. أدرك الآن أن السفينة لا يمكن أن تكون بيتاً بحريّاً. وهل كان ذلك البحّار الغريب إذن يحتاج إلى بغي بائسة أو يربط مصيره دائماً بنساء غريبات في موانئ لايعرف في أيّها سيكون غداً؟ ابتسمت بالرغم من نفسي.

- السفينة ليست بيتاً.

قلت، وكنت خائراً بعد أن سرتُ طويلاً حتى استغرق النهار

Twitter: @ketab_n

نفسه وخمنّت أنها الساعة السادسة تقريباً. ومَن كان ذلك البحّار وأين كانت سفينته؟ تلك هي؟ لم تكن غير بقعة ضعيفة تتأرجح فوق مستوى الماء، كدبّوس ذهبي في زجاجة خمر. وفي المقهى، رأيت صبياً نائماً على مصطبة. كانت تنتظر أن أعود إذن لأنها تحمل مخلوقاً في أحشائها، حاراً ينتظر أن ينفصل عن جوفها. ارتعشتُ في رطوبة البحر.

في أي فندق كان الشاب قد نزل؟ كانت بيوت صامتة تحمل جدرانها تواريخ حزينة لأناس ناموا وراءها، منفصلين عن العالم بأفعالهم ورغباتهم، وخانوا أيضاً ومزّقوا مصائرهم ورحلوا. بيوت. بيوت. وفي النهاية كان كل شيء، بالرغم منهم، متوازياً، مساوياً. والماء ينفّس عن أعماقه دائماً وطيلة هذا الوقت بحركته الواحدة المألوفة، تحت قواعد البيوت الرطبة المغطاة بطحالب البحر.

لم أسر طويلاً، فلم تكن لي قدرة على ذلك بعد. وجلست أنظر إلى كتلة المياه السوداء، تخفق دون غاية وتضرب جدار الميناء كأنها تكرر رغبة خرساء لا يمكن تحقيقها. ماء وأصوات بعيدة.

(بغداد، نُشرت في الآداب اللبنانية، العدد الثاني، شباط ١٩٦٧)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في صباحٍ ما - هناك...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رفّ طائرٌ ضخم وحطَّ بساقين حمراوين طويلتين قرب جثة القطة، فقذف يوسف بعقب سيجارته من سياج المقهى المرتفع إلى حيث كان الطائر يتشمم بمنقار كئيب جثة.الحيوان المتقرن، ولم تصل السيجارة التائهة إليه بل حملها الهواء العاصف إلى القارب الراسي تحت المقهى مباشرة، وسحب نظره فأعاده إلى جوف المقهى. ميّز المهرّب جالساً في كرسي قريب، فانفتخ الضيق في داخله كالريش. ونهض قليلاً، فرآه المهرب بأن إرتفع حاجباه الشبيهان بشاربين وكشفا عن عينين مدورتين وقانطتين كعيني فأر. وجاء إلى منضدته فنهض يوسف وصافحه. وجلس المهرب. وشرب بعد قليل من كأس الماء، وطرح يدين طويلتين كقفّازي شرطي مرور على المنضدة، وبرم شاربه. قال بصوت مبحوح:

- ماذا قررت؟

فأوما يوسف ومدَّ يدَه إلى جيبه. قال دون أن يحرك يده بعد، وقد لاحظ عيني المهرب الجاحظتين تكادان أن تندلقا على يده الممتدة:

- كل شيء حسَب الاتفاق، كما قلنا البارحة؟

همس المهرب:

Twitter: @ketab_n

- بالضبط. والنقود؟

وغسل القلق وجهه فتركه قناعاً نظيفاً، دنيئاً. وحملق في اليد، في الأصابع التي حملت النقود إلى المنضدة. فقال يوسف وشفتاه ممتقعتان:

- البقية عند الوصول.

وتناول المهرب متعجلاً، واستولت عليه روح العمل فأخذ يعطي توجيهاته. وكان يتكلم بنفس اللهجة. أفرغ نفسه البارحة، وعرفه يوسف برعب. وقد لخص المهرب حياته في استطرادات كشفت عن خبرته كمهرب. وقد بيّن عدم جدوى الطرق الأخرى في السفر. فالانتظار في دورة المياه في القطارات فيها مجازفة كبيرة، وهناك مفتشون ماهرون ويؤدون واجبهم بانتظام يثير الأسف. وجواز السفر صعب، الجواز المزوّر بالطبع. والهروب هكذا بعد ركوب الرأس، معاندة ضارّة وتدلّ على رجل صغير، أما المجازفة على حدود إيران مع الجنود الذين يقال إنك تستطيع رشوتهم بثمن بخس - لأنهم يرتدون ملابس مهلهلة ومرتّبهم لا يكفي لشراء أصباغ لأحذيتهم - فقد تكون صحيحة ولكنها خطرة. وبإختصار أقنعه المهرب بأنه سيكون مغفلاً إذا ترك هذه الفرصة تفلت. وقد شرح المهرب كل شيء، ورتّب مهمة السفر بشكل مقنع، وطمأنه بصوته المبحوح فأخذ يوسف يحلم بالنهر الطويل الموغل في الأحراش، مجتازاً مدينة بعد أخرى في غرفة القارب الوحيدة التي سيقاسمه إيّاها المهرب. وقال هذا، قالباً عينيه إلى أعلى بينما ينفث دخان التبغ القذر الذي كان يبتلعه:

- تعال في الساعة الخامسة صباح غد.

Twitter: @ketab_n

وطلب سيجارة. أنف حزين، وعنق متقرن: وذكّره جلد وجهه المتحلل بالقطة. ونظر يوسف إلى النهر، كان الطائر منشغلاً باللحم الميت، وحركة الماء لا تكلّ. وميّز نباتاً أصفر يحمل وردة واحدة من دوار الشمس أزالت شكلها الأصلي ضربات الطيور التي أكلت منها، ونهض المهرب. وقال ضاحكاً:

- إلى الغد. نترخص.

ونسي يوسف أن يصافحه. كان يحدِّد نظره في هذا القناع الممانع، فكر بأن يحفر صورة وجهه في ذهنه، ودقّق بعينيه في الأنف، والعنق، واليدين اللتين تشبه أصابعهما القصب. وانفلت المهرب عبر الكراسي وهو يغطي وجهه بشال باهت رخيص من القطن. رآه يشير إليه وهو يتحدث مع صاحب المقهى. وفكر: «لقد دفع المهرّب حسابي». واستسلم لموجة الخوف التي دخلت أنفه مع روائح التبغ: قد يهرب بنقودي. لقد باع كتبه، وساعة أخيه، وإسطواناته واستدان حتى استطاع أن يجمع نصف الثمن. ونظر إلى الطيور بعينين قلقتين. ثم نهض من مقعده وسار إلى خارج المقهى، وانقطعت الأصوات التي كانت تملأ أذنيه فدخلهما تيار من البرد والهدوء. ورفع ياقة سترته. وشيئاً فشيئاً تلاشت روائح النهر النيئة من أنفه. ودخل محلاً فطلب سمكة مقلية.

بينما كان يمضغ بين أسنانه ذنب السمكة وزعانفها اليابسة، وكان قد أوشك على أن يفرغ، رغم وضعه للحيطة، إلى جانب، قطعة جيدة كان يفكر بأن يأكلها في النهاية للاحتفاظ بطعم السمكة الحقيقي، وإذ رفع عينيه عن الصحن لمح شَعَر ناديا ومعطفها ومشيتها الأليفة وعرفها، فمدَّ يده إلى الجزء الأخير الاحتياطي ورفع

Twitter: @ketab_n

عنه الجلد المسلوق المبقّع الأخضر قليلاً والذي يشبه جلد ضفدعة، وأكله، وامتص المشط العظمي وألقاه برضا في الصحن وأكل حبة زيتون وأعطى نقوده بعد أن غسل يديه وفمه، وخرج. رأى سيارة قرب ناديا، فركض، وقد فكر بأنها ستركب. ولكنها لم تركب. وعاد يسير ببلادة سعيدة، محاولاً بيأس، في الواقع، أن يكون سعيداً جداً. وعرف أن أيا كان سيعرف رأساً أنه غير سعيد. ولم يكن يتعجل أمره، فترك ناديا تدلف إلى شارع فرعي، وصاح في دخيلته الفارغة العريضة: «إذهبوا إلى بيوتكم. التجوال ممنوع أيها القذرون. إذهبوا إلى بيوتكم». وضحك بفكي ثعلب، وانشغل بمطاردة المعطف الذي يحتوي على جسد آخر أليف وغامض. وحوّل وجهه إلى شرطي، طارحاً نظرة بوليسية على رجل بائس مذعور كان يحاول أن يقترب منه، ربما ليستجدي شيئاً ما. ثم عاد يوسف أدراجه عدة خطوات، وقرر أن يصعق الرجل بمفاجأة فأعطاه حفنة من قطعة النقود الصغيرة. وخاف الرجل هذا الفعل المجاني في أول الأمر، وانفلت يوسف بوقار مطارداً فتاته في شارع ضيق. وكاد يصل اليها، ووقفت في مكانها. غطى جبينها غشاء مبتل من شعرها. وقال يوسف: كنت تركضين. من يطاردك؟

فقالت ضاحكة:

- لا أحد.

وأخذت تعدّل شعرها. فأخذ يوسف يتكلم. وتكلّف في حركاته. وتوقف باص، فارتعب. انتظر أن تصعد إليه، ولكنها لم تفعل.

وقال بهدوء:

Twitter: @ketab_n

- إنك وحيدة. هل أستطيع أن أوصلك؟

لاحظ اضطرابها.

- إنني مرهقة. عملت منذ الساعة الثانية ظهراً حتى الآن.

فقال يوسف بإلحاح:

- سآتي معك. ماذا تقولين؟

قالت بصوت جاف:

- ليس اليوم.

وفكر بشقَّتها الكبيرة. وقال:

- لا تخشي شيئاً. إنني أطلب منك شيئاً واحداً فقط هو أن أقضي ليلتي لديك.

ورأى الكره في عينيها، فعجّل بقوله محاولاً أن يتلفظ الكلمات بمهارة:

- أعني، أنام فقط.

كظمت غيظها مع شيء أرادت أن تقوله، وكان سيكون قاسياً. تقدمت على الرصيف، وانتظر الباص وهو يشخر قليلاً. ثم ارتقى يوسف الدرجة ودلف من الباب خلف ناديا وجلس إلى جانبها. ولم تقل شيئاً، وتحرك الباص في أغشية الأضواء الصفراء التي كانت ترتفع كبخار مقبرة في الساحة النظيفة. وفكر يوسف: «لم تكن كالمرة السابقة». وإختطف من وعيه صورة لناديا وهي تعبر في الشقة الأنيقة بثوب النوم. ولكن الأمر كان مختلفاً. وتلصص بعينيه على كتفها، كان شعرها يغطي صورتها الجانبية. وتدلّت أرنبة أنفها الجميلة وحدها خارج إطار الشعر. وأراد أن يستمر في دوره، ولكنه رأى ملامحها المرهقة فغلبه الذعر: ربما لم يستطع أن يفعل

Twitter: @ketab_n

شيئاً مما يريد. ولم يكن يريد إلا أشياء غامضة في الحق، أن يغيظها أولاً وقبل أي شيء آخر. شقَّتها، وعملها، وصلافتها: كان فمها الملوّن دائماً يبعث فيه بمشاعر شبه سادية. وفكر بأن يهينها مرة، حين رآها تصعد إلى الشقَّة ومعها رجل آخر. ورآه أخيراً في نفس المحل الذي تعمل به، الرجل. كانت تستخدم شقَّتها جيداً.

ونظر إلى أصابعها، كانت تحاول فتح نافذة الباص. أصابع قصيرة، عصبية وذات أظافر بالية وشاحبة، وأثار رسغها الهزيل رغبته في السيطرة عليها من جديد. إستسلمت له مرة واحدة. وبعد ذلك لم يحاول الاقتراب منها. لقد وضعت أمامه حاجزاً.

وسارا قليلاً، وأخرجت مفتاحها من حقيبتها. قال وقد جرحه صمتها:

- إذا كنت تخافين. . .

وأعطت للصمت فرصة لسحقه، ثم قالت ببطء وحمرة فمها تتفتح في إبتسامة لاحظ يوسف سفالتها:

- إنني لا أخاف شيئاً، ومن الذي تكلم عن الخوف غيرك؟

«تهينينني إذن»، ودلف يوسف وراءها بخضوع. كان بداخله مسرح للتعذيب والسادية، وكان يقهقه وقد استطال وجهه كوجه الجنرال ديغول. وفي الظاهر حاول أن يصد رغباته الداخلية من الوصول إلى عينه أو جلد وجهه.

حين جلس في جوف الشقَّة الهادئة أدرك ما كان يبحث عنه في مطاردته لناديا، ولحياته المضطربة التي يريد أن يسافر ليعثر عليها. كان يبحث عن رائحة معينة. ولم يميز إدراكه جيداً. ربما كانت هي هذه الرائحة. وتساءل وهو يتناول سيجارة بحذر، رائحة ثيابها

Twitter: @ketab_n

الداخلية أم فراشها أم جواربها؟ وقابله وجهها معلقاً ضمن إطار على حائط: فارغ، غير عميق، ولكنه ملائم. كانت قد أغلقت باب غرفة نومها. إنها تبدّل. وتمنّى بيأس أن تبدّل وجهها أيضاً. فقد أفزعه أن يفكر بأنه لن يستطيع قول أي شيء وسيكون مشلولاً أمام وجهها في حالته الطبيعية هذه الليلة. ونظر إلى ساعته. وحاذر أن يسقط رماد سيجارته على المنضدة. وكان تمثال زنجية عارية تضحك بأسنان بيضاء شهوانية موضوعاً على نافذة.

وخرجت بملابس نوم. ولم تكن الملابس هي نفسها. ولكن بالطبع، ماذا ينتظر. وشغل نفسه بتفحص الصور المعلقة، محاولاً أن يزيح كتلة حسية كانت تحاول ولوج وعيه، لم يرد أن يستعيد صورتها التي أثرت عليه في المرة الأولى بحيث فكر بأنه يحبها تقريباً، فتاة عاملة شريفة وحياتها تبعث على الكآبة. ثم أهانها، ووضعت أمامه الحاجز. الرجل، لو أنه لم ير ذلك الرجل. لو أن الأمر بقي في الخفاء، لو أنه تخلّص من معرفته الأولية على الأقل لاستطاع أن يتصرف في شروط طبيعية لا يضغط عليها ثقل معرفة أو إدراك قاطع. ولكنه كان حزيناً آنذاك. رآها، هبط بها إلى النهر، وقال في وجهها البارد إنها بغيّ فغلّف وجهها عار هادئ. وذهبت وحدها، فذهب هو يتنزه دون هدف ثم دخل إلى بار رخيص تفوح من زواياه الأربع رائحة قيء قديم، ثم خرج منه في وقت الإغلاق مع عدة رجال مخمورين بصورة ثقيلة كانوا يتحدثون عن زوجاتهم وعن العالم كحيوانات.

وقالت فجأة:

- إنني أعدّ العشاء. إذا أردت أن تأكل، تعال إلى المطبخ.

Twitter: @ketab_n

نهض من مكانه. كانت السمكة لا تزال في بطنه، ولكنه ولجَ المطبخ. كهفها النسوي الخاص. زوجة من تتخيل نفسها، حين تنام في سريرها أو حين تكون في مطبخها؟ ليس هو بالتأكيد، وجلس في كرسي. أخذت تصبّ له. لم تصب له شيئاً في الواقع، فقد كانت تحتفظ بأغذية باردة ومحفوظة. وقال يوسف الذي فرّجت عملية الأكل من تردده:

- إنك زوجة جيدة.

قالت وقد أحست بأنوثة ضئيلة في الخفاء:

- لست زوجة أحد.

وإستمر يحدّق فيها وهو يأكل. واقتربت منه كالفأرة فمدّت ذراعها إلى رفّ ورأى داخل إبطها الحليق فوق رأسه فوضع يده بطولها على ساقها، فابتعدت دون أن تقول شيئاً. وقال وهو يبتلع عشاءه الإضافي:

- سأسافر غداً.

وإنتظر أن تسأله إلى أين؟ ولم يتمهل حين صمتت، وأردف:

- في الحقيقة، إنني سأسافر مع مهرّب. سأجازف. وربما قُتلتُ، وسأكون سعيداً بنهايتي التمثيلية.

تكلمت، فشعر بارتياح. كان غرضه، كما أدرك، أن يجرّها إلى حوار ينشب بينهما. لماذا كان غرضه هو هذا، لماذا كان يشعر باستعداده للتنازل لها عن كل شيء مقابل كلامها، مقابل حديث مفصّل معها. لماذا، لم يعرف. حتى الآن، على الأقل، علاقة غريبة. وقالت:

- إنك لست هارباً من شيء، أليس كذلك؟

Twitter: @ketab_n

قال بضجر محاولاً أن يخفي لهفته وكاذباً بنفس الوقت:

- لا شيء هناك سوى أنني أريد أن أتسلّى. ربما طاردوننا في النهر قليلاً وربما خانني المهرّب.

- إذن ستسافر مع مهرّب.

- إنني أحتفظ معي بمطواة صغيرة تكفي لبقر معدته، إذا ما شممتُ رائحة خيانة. على كل حال، لا أعتقد ذلك. وأظنني سأكون في الخارج بعد أيام. هناك.

ضحكت الفتاة، وبدت هزيلة وبشعة تقريباً في ملابس النوم. وسمّر عينيه المنهكتين في جسدها، في وجهها الضحل. وكانت تتلبس طابعاً بيتياً، وفي وجهها لا تزال زينة الخارج.

لا بد أنك لا تصدقينني. ولكن لا يهمّني أن يصدّقني أحد، طالما انني سأكون بعيداً صباح الغد، عن كل شيء.

وتماسكت نفسها وقالت بسأم مفاجئ كأنها تتسلّى باستدراجه إلى الحديث للانشغال عن أفكار خاصة بها:

- لا بد أنك تهرب من شيء ما.

فقال: - ليس هناك أي شيء. لقد كنت أريد أن أسافر دائماً.

- ولكن إلى أين؟

وميّز تشدّدها الفجائي الذي انقلب معناه في وعيه إلى شبه مقت منها لتماطله، شعر بقسوة تغمره، وأراد بجموح أن يفرغها من داخله، كانت تسلبه كل شيء بتجريدها للأمر وعرضه بهذا النوع من عدم الأهمية. وشعر بالحاجة المقلقة إلى التعويض تدفعه إلى التهوّر. وقال:

- إنك لن تفهمي شيئاً. حين أذهب، وذلك في الصباح،

Twitter: @ketab_n

سيبدو لي أن حياتكم جميعاً تتعفن هنا وقد تركتها ورائي، ولن تصلني الرائحة.

وفكر: «لن تهزئي مني».

وجلست إلى جانبه. فكّر: «إنها تستعجل الأمر. تريد أن تنام مبكراً». ومد يده إلى خصرها. قالت وهي تعيده بقوة:

- كلا أرجوك. لديّ عمل في الغد.

فقال يوسف بأسنان مطبقة:

- وأنا سأسافر في الغد. وربما أُقتل.

تعكّر مستوى عينيها وهمست فجأة:

- لا يهمني إن قُتلت أنت أو قُتل الجميع من أمثالك.

وتبادلا النظر بحدَّة. «إنني أعاملها كبغيّ»، قال يوسف متخذاً موقف التجريح فجأة، وهو يعود إلى مكانه، متجمعاً على نفسه وساخراً.

- لن تفهمي شيئاً.

وعندما رأى وجهها البارد محتفظاً بغلافه أضاف وهو يدرك أنه يقلب سلوكه بشكل ما:

- وستبقين تنهضين كل صباح فتذهبين إلى العمل، وتصطحبين رجلاً ما إلى شقتك ثم تهرمين. ستقضين سنين طويلة هكذا حتى لن تعودي إلى اصطحاب أحد إلى الشقة لأن هذا الأحد سيجد لنفسه شيئاً آخر، زوجة صغيرة أجمل منك. ولن تفهمي نفسك فربما كان يمكن أن تكوني فتاة أخرى وتعيشي حياة أخرى. أليس كذلك؟

وقال بحقد وبكلمات أرادها شفافة لأنه أحسَّ بالذعر من احتمال أن تتلقاها ناديا ببرود:

Twitter: @ketab_n

- لماذا لا تخلعين هذا الوجه مرة واحدة، إظهري مرة واحدة على الأقل كما أنت.

قالت بصوت غريب ارتاح له لأنه بشّره بتواصل الحوار:

- إنّ وجهي الذي تراه أيها السيد هو نفس الوجه دائماً.

وفي الصمت المعلق قال عبارته الرشيقة التي كان يعدّها منذ بداية جملتها:

- حتى في الفراش؟

وأردف:

- إعترفي بأنك ترتعشين قليلاً حين تعودين إلى شقّتك هذه دون أن يكون هناك من يصطحبك أو من يفكر بك. ويكونون منشغلين بينما تدخلين أنت وحدك إلى سريرك البارد.

وأشار بيده بسفالة:

- هناك.

صفعته، فجرّ رسغها بحيث تألمت وهي تهمس كالقطة:

- اتركني.

فاحتضنها. وهمس في أذنها بصوت يائس منفعل:

- نحن وحيدان. إنني خائف، وسوف أقتل في سبيل ألا أفشل. ولكني قد أموت وقد يلقون القبض علينا أثناء الهروب.

وقالت في أذنه:

- إنك لم تفعل شيئاً أيها الجبان، ولن يحدث لك شيء. لا تخف على جلدك.

فكر بمتعة: «إستدرجتها. إستدرجتها». كان يريد بإستماتته أن

Twitter: @ketab_n

يجعلها تتخذ هذا الدور، كما أدرك بذعر. وأمسك بها من شعرها وقال:

- إننا نمثل جيداً، اننا نمثل جيداً.

ونهض، فسمعها تقول بهدوء:

- أنت وحدك من يمثل.

ونظر، وقد رفع يده يتحسّس بها الجدار، سفلاً!!! إلى حيث عيناها الجامدتان في نظرة تشبه صورة فوتوغرافية. ملأه إدراك عارم قانط، وأحسَّ بأنه في حضور السمكة الميتة التي كانت لعينيها الجاحظتين نفس النظرة الجامدة المعبأة باللامبالاة والموت، والمنفية في عالم آخر لا سبيل إلى ولوجه من قبل آخر، ولم يكن بوسعه أمامهما غير أن يضع أسنانه على اللحم الأبيض المولود في الماء، يائساً من أيما تفاهم. ومسَّ الزر البارد المانع بأصابعه فأحسَّ بسطحه الصغير مغلقاً عنه مغموراً بصلادته التي تخفي نشاطاً غير منظور بالنسبة له كجميع الأشياء الأخرى التي كانت تتأكل فراغ الغرفة ككائنات مفرغة بدورها في المكان وغارقة في توترات خاصة وزمن غريب شخصي تستحيل إضاءته حتى بالنسبة إليها. وتحركت يده، فعرف بإرتياح، أنهما لن يتفاهما أبداً. وانتظر من الظلام أن يملي عليه دوره. على كليهما.

(بغداد، نشرت في مجلة الآداب اللبنانية، العدد الحادي عشر، تشرين الثاني ١٩٦٦)

Twitter: @ketab_n

الملجأ

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حين بلغت الجسر، نزلت عن درّاجتي وانحدرت في سيري على حافة الأرض العالية وأنا أحمل الدراجة في ذراعي حتى استقرت قدماي على حديد السكة. وامتطيت دراجتي، ثم انطلقت بها محاذياً للسكة التي لا نهاية لها.

كان يسبقني ظلٌّ طويل جداً يشتبك في أسفله بظل الدراجة، وكان أسود اللون يمتدُّ على الأرض كحيوان خرافي. كنت قد قرَّرتُ نهائياً. وكانت عبارة قديمة لأناتولي فرانس قرأتها في مجلة مدرسية لا تزال تلازمني: «الحياة ثلاثة أشياء: ولادة، ألم، موت.» كنت لا أريد إلا أن أظفر فوق الشيء الثاني.

مررتُ بطاحونة مهجورة تحيط بها بِركة من مياه المطر الآسنة، كانت فيها جموع كثيفة من الضفادع الخضراء تنقُّ ببرود للفضاء الخالي من البشر. كنت أعلم جيداً أنه ما من أحد يرتاد هذه المناطق إلا نادراً. استغرقت نصف ساعة حتى بلغت المكان.

كان مقلعاً حجرياً قديماً، يبدو أن العمال اشتغلوا فيه مدَّة من الزمن ثم هجروه. ارتقيت، وقد أمسكت بدراجتي ثانية، حافة الأرض الشبيهة بتلّ خفيض. لم يكن بالقرب من المكان غير محطَّة صغيرة تضخّ منها المياه للقرى المجاورة.

Twitter: @ketab_n

كان في داخلي شيء مريض، بشع يدفعني إلى الإجهاز بكل سهولة على أية فكرة تتعلق بالعودة. كنت بعيداً عن المدينة بمسافة ساعة، وكان هذا كافياً. أخرجت الحديدة الصغيرة التي اخترتها من بين الأدوات الأخرى التي تضمّها الحقيبة الجلدية المربوطة خلف الدراجة. ولم أخلع سترتي. كنت أريد الاحتفاظ بثيابي كاملة.

كان ملجأ صغيراً جداً يسع شخصاً واحداً فقط، وقد بنيتُه بأن كوّمتُ الصخور واحدة فوق أخرى، ملائماً بينها، دون أن يصلها ببعضها البعض شيء. ثلاثة جدران، وتكفي دفعة من قدم كلب لينهار كل شيء. ولن تنهار الجدران وحدها، إنما سيتدفق فوقه شلال صلب من الصخور التي تعلو الجدران مباشرة، مكوّمة فوق بعضها. وكنت أخمّن أنها قد قطعت وكوّمت من قبل العمال ثم أهملوها لسبب ما. واليوم كانت اللمسة الأخيرة تنتظر أن توضع في مكانها. ودخلت بحذر ثم وضعت الحديدة بين صخرتين، وكان عملها شبيهاً بعمل مفتاح مدمّر. فهي إن حُرّكت نحو الأسفل، وذلك بالضغط عليها، تخرج الصخرة التي فوقها من مكانها، ويختلّ كل شيء فتنهار الكومة التي في الأعلى كعالم مخبول يسقط. والتقطت بقايا الفاكهة التي كنت آكلها في الملجأ وأنا أشتغل في الأيام الماضية، وعظام السمكة التي أكلتها هنا أيضاً، طيلة ساعات قضيتها في استخراج العظام الإبرية من داخل اللحم الأبيض. وقد نجحت بذلك في قتل يوم كامل خال من الضجر. وحملت هذه الأشياء بيديّ الاثنتين وإذ أردت أن أُلقي بها خارجاً، رأيت رجلاً طويلاً يملأ المدخل وينحني برأسه إلى الداخل. حاذرت أن أتحرك داخل الملجأ وقلت للرجل:

Twitter: @ketab_n

- «ماذا تريد؟»

كان يراقبني بحذر. وفجأة قال:

- «ماذا تفعل هنا ياولدي؟»

فلم أجبه، وخرجت إليه ببطء. طرحت رؤوس الفاكهة وبقايا السمكة من يدي، وقلت له بهدوء:

- «لاشيء، إنني أتسلّى.»

- «في هذا المكان؟» وأشار برأسه: «وهل بنيت كل هذا للتسلية؟»

كان يبتسم متأملاً. وحاول أن يلمس الجدار، فصرخت به: «حذار!» قال متسائلاً:

- «لماذا؟»

فأبعدته قليلاً وأنا أقول:

- «سيسقط فهو ضعيف البناء. مجرد أحجار، كما ترى. ولكن من أنت؟»

فقال وعيناه تشردان بعيداً عني:

- «إنني حارس محطة المياه. هي قريبة، تستطيع أن تراها من هنا.»

قلت بفظاظة:

- «ولكن ما الذي تفعله هنا. إنك بعيد جداً عن محطتك. أليس كذلك؟»

كان جلده جاف الملمس، خشناً. وكان له شارب كثيف. خمّنتُ أنه في الأربعين، ولكن يشماغه الباهت اللون لم يكن يسمح

Twitter: @ketab_n

لي برؤية شعره. وإذ كنت أنظر إليه، خيّل لي أن أحلاماً غريبة وحشية تملأ أمام عينّي المفتوحتين.

دخل الملجأ، فتركته يفعل ذلك. وكان يحني جسمه الطويل وأطرافه الماردة بحذر لئلا يمسّ الجدار او السقف - الذي كان عبارة عن قطعة كبيرة من الصفيح مثقلة بصخور عُرضة للأنهيار في أية لحظة. قال بصوت عال:

- «إن عشّك دافئ جداً. جميل».

وغشّت عينيه سعادة طاغية، فبدأت أرتجف. كان منظره غريباً وهو في نهاية الكهف الذي كان نور الشمس الشاحب يتخلّل الفجوات التي بين صخوره، ويسقط ميتاً على ظهر الرجل.

قال فجأة دون أن ينظر إليّ:

- «لماذا بنيته؟»

فقلت بغضب:- «لأموت فيه.»

رفع عينيه إلي. كانتا فارغتين . وبدأ يضحك ضحكة سعيدة طويلة. ثم قال لي بخشونة:

- «يابني، عد إلى مدينتك.»

فقلت بهدوء:

- «إنّ هذا مكان مشاع. بريّة. ثم إنك حارس محطة للمياه، ولا علاقة لك بهذا المكان قط.»

قال الرجل بلهجة أبوية:

- «أخبرني لماذا تريد أن تموت، وسآخذ على عاتقي تنفيذ رغبتك، صدّقني يا ولدي. وإن شئتَ، وضعتُ نفسي في مكانك. ماذا تقول؟»

Twitter: @ketab_n

استمر ينظر إلي، محاولاً أن يجعل عينيه تلتقيان بعيني. ثم قال وهو يشعل سيجارة ويتنهّد فيزفر موجة من دخان التبغ:

- «وإن شئتَ، ذهبتُ. ولن يعجبني أن أجلس هنا بعض الوقت.»

شعرتُ بغضب عنيف، وحاولت أن أهدئ نفسي.

كان الرجل الطويل هادئاً في مكانه، يدخّن بصمت، وبدا لي انه مخلوق دنيء. فقد كان في مشاكسته لي شيء أعمى كالطرب الساديّ.

وقال:

- «كنت تأكل كما لاحظت، فهل تأتي هنا لتأكل؟ إنّ ذلك العراء (وأشار بيده) جميل، وهذا الفصل هو الربيع كما أظن.» وانتظر. «ألا تكلّمني؟ كما تشاء، ولكن لماذا ترفض أن تخبرني بسبب مجيئك إلى هنا؟»

قلت وأنا أبتسم له معترفاً:

- «جئت لأنتحر.»

ظلت يده معلّقة في الهواء، كانت يداً قوية، يداً متسلّخة الجلد لرجل عمل طيلة حياته كحيوان، رجل خبرَ العالم جيداً. وحدّقت في عينيه بإمعان، واقتربت من فوّهة الكهف وأنا ألهث، ثم مددتُ يدي وأهويت بها في عنف على الحديدة الصغيرة. رأيت عينيه للمرة الأخيرة وأنا أنسلّ إلى الخلف بسرعة، ثم هبط جانب من السقف على كتفه، وحاول مذعوراً أن يندفع ناحية المدخل ولكن الجدران انخسفت عليه، ثم بدأت دمدمة غامضة تصدر عن كومة الصخور التي في الأعلى. كان انهيار كبير يتدفّق من الأعلى، ويستقر على

Twitter: @ketab_n

الكومة الأصلية التي بدأت تكبر أمامي، وتحتها الحارس. امتلأت بدفقة باردة من الكآبة، كأنني نزفت كمية كبيرة من الدم. ورأيت، في النور القليل الذي ينحدر من الشمس، بقعة صغيرة من رأسه. كان شعره أبيض. ومددت يدي فأنهضت بها الدراجة، وابتعدت قليلاً ثم نظرت إلى الوراء للمرة الأخيرة. كانت يد مخضّبة تتحسس طريقها ببطء من بين الصخور التي كفّت عن الحركة. وظهرت بارزة في الهواء كيد مسيح ساقط. وفكرت: «لقد كان يريد أن يحل مكاني، وإن كان يمزح.» وامتطيت دراجتي، ورحت أدفعها على مهل بحذاء الخط الحديدي الذي لانهاية لامتداده، وبقيت أحدّق أمامي وقد لفّت العالم غشاوة باردة من الدم، مندفعاً تحت الشمس التي تنهار ببطء في طريقي الطويل نحو المدينة.

(نُشرت في *العاملون في النفط*، العدد ٥٥،
تشرين الأول ١٩٦٦)

Twitter: @ketab_n

قطار الصباح

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

قلت له: إضحكْ

وكان ينظر إليّ، كما كان الرجل السمين ينظر إليّ، كما كان المهندس ينظر إليّ، كما كانتْ نادرة تنظر إليّ. كان هو ينظر إليّ، ولكنّ الوقت كان صباحاً، أما الرجل السمين فقد كان ينتظر في القيلولة، والمهندس ينتظر بدوره. - نادرة لا توجد إلا في الليل - أفكر أحياناً: لعلّهم ماتوا لعلّهم لم يوجدوا.

كان ينظر إليّ، ولكن الوقت كان صباحاً، كان حاراً تحت جلده المتعفن، تتدفق حرارته إلى عينيه بلون الفلفل الرمادي، وحوله بِرك صغيرة آسِنة، وثلاثة أزواج أخرى من العيون، صفراء، وزوج آخر خطر لي أنه أخضر. وخطر لي أن أهرب. كانت حاسة نشطة للركض تتآكلني. خضتُ في الماء بحذائي. عيناي كانتا تغوصان إلى قاع البركة. لاحظتُ منديلاً تخلّى عن لونه، كان يطفو على الماء كالطحلب. إمرأة، إمرأة غرقت في البركة ذات المستوى المضحك. ولكن، لعلّها غطست فتلاشت، لأنها لم توجد في يوم من الأيام. إلتقت ببركة جميلة ببركة تافهة، ببركة حقيقية، فصاحت وغرقت وأدركت أنها ستتلاشى، ستعرف أنها لم توجد قط. أو أنها كانت تسير ولكن دون ثبات، بإحساس مقلوب. لقد نظر إليّ. لقد

Twitter: @ketab_n

كان خاصاً جداً، ذا عينين كالفلفل، مثلما قلت، ولسان يقترب طوله من طول ذراع مقطوع، يتدلى إلى حافّة الماء. فكرت: ليضحك. إنه لا يدري شيئاً، وركزت نظري في لسانه: بدا كجزء من أخطبوط مسلوخ، يرتعش في الظل. ولم أنتبه إلى أنني في العراء، وسط كلاب. لم أنتبه إلى الكلاب كلها، بل إليه وحده. لأنه، إذا فرضنا أنها هاجمتني، فسأعتبر الهجوم فردياً، ولن تكون قيمته إلا على أساس أن كلباً واحداً، كلباً ذا عينين كالفلفل هاجمني. لأنه كان يريدني، لأنه عرفني، لأنه رآني أخرج إلى العراء، من القلب القذر للمدينة ذات الشوارع، من الدائرة ذات النافذة الواحدة. كنت أمسك بحجر واحد صقيل، كأنه خوفي نفسه وقد انتشلته من صدري ووضعته في أصابعي، نظر إليّ، ففهمت. ألقيت بالحجر، ونظرت إليه. حدث ما توقعت، لقد بدأ يعوي من أغواره المائعة. نهض منتفضاً، وعيناه تنبتان في المياه الآسنة كثمرتي فلفل محروقتين. كنت أغذّ من خطاي. وكان ثمة تلٌّ في الأفق، وصحتُ:

- أيتها الآلهة، لأصل إليه، لأصل إليه!

كانت المياه تصوّت ومخالب الكلاب تشقّها عدواً. كانت تعدو وهي في مكانها ولكنها كانت حواليّ، كأنها طافية. أدركت فجأة أنني لن أبلغ التل، فطفقت أرمقه وأنا أحاول إيقاف ارتعاشي. كان ينظر إليّ. وقلت بيأس. هذا كلّه ضلال.

كان ينظر إليّ. ولكن الوقت كان صباحاً. أما في النهار، فقد كان ينظر إليّ أيضاً، وكنت أنقذف في قنال طويل يحتشد فيه الناس، وتتأثر الحيوانات أماكن الظل. إرتعشت قليلاً وأنا أخوض

Twitter: @ketab_n

الضجة التي لها تأثير كتأثير الهلع في الأماكن المهجورة. وكنت أفكر بسرور: سأتريّض كما يفعل الناس. وضحكت حين أدركت أنني كنت أُشرف على حافة الهوّة، أسير ببطني العريضة الجائعة وعنقي اللغِد ونظّارتي القذرة بالعرق وبالمياه التي تفرزها عيناي، وترنّحت إذ اصطدمت بمرفق ثابت كأنه وتد. . . والتفت مذعوراً فإذا هو يضحك. وكان سميناً مثلي تماماً وله عينان بيضاوان. واندفع الرجل الأعمى ناحيتي فصرخت وأنا أستدير إلى الوراء. ومسّت أصابعي أذن حمار جافة وقاسية، وكان ينظر إليّ. وخُيّل لي أن له نظّارة قذرة، وأن ثمرتي فلفل تندلعان كالنار في محجريه الآسِنَين، كان ينظر متهكُم الفم، غليظ الشفتين، وعيناه العمياوان تقودانه صوبي. وارتطمتُ بكل شيء. ثقيلاً ومفزوعاً، وبطني العريضة تمضغ نفسها وتجبرني على أن أسرع، أن أسرع، والتهمت سيارة طول الشارع، وعجلتها تدور وفيها انعكاس صورتي، وسط القيلولة والنوافذ المغلقة والمقاهي الفارغة. ودلفت إلى فتحة ظليلة في أبط الشارع وأنا أفكر بأنه كان ينتظرني، وكانت منضدته الطويلة تغطيها زجاجة عريضة تحتها صورة لامرأة ترمق المهندس بوجه باسم شهواني تسحقه الزجاجة العريضة، وهو لا ينتبه للمرأة بل ينظر بابتسامة، ينظر إلى أنفي ويحرص على ألا تمس عيناه عينيّ القذرتين. كان ينظر إليّ، وقال وكأنه مريض:

- أنذرتك مائة مرة.

وكان يبتسم باستهجان ثم قال: كيف تخرج من دائرتك دون اذن؟ فأجبت بشقاء وأنا أضحك في سريرتي: كنت مريضاً.

ضحك ضحكة قانطة. فكرت: تضحك. . . . ولم يكن

Twitter: @ketab_n

يضحك ضحكاً جيداً وقد اعتاد فمه ذو الخط الجامد على الانطباق. وصاح بتهوّر وهو في حالة سيئة من الغيظ:

- لقد أنذرتك لآخر مرة، فأجذر ألا يكون ندمك متأخراً جداً.

وانتظر ثم قال بهدوء:

- كنت تتنزه أليس كذلك؟

فخاطبت نفسي بهدوء أيضاً:

- نعم، كنت أشاهد الكلاب.

وقلت له بفظاظة:

- كلا

ونظر إلى أنفي وخرجتُ إلى القيلولة ثانية ولكن نادرة لم تكن تخرج إلا في الليل، لم تكن توجد إلا في الليل. ودلفتُ إلى مطعم فأكلت وشربت ووضعت نقودي في قبضة خادم أعور ذي شوارب. وعدت إلى الشارع فكان الليل وكانت نادرة تراقب باب الغرفة وهي تبدو نشوى في عينها وفمها على السواء. واستندتُ إلى الباب منهوكاً وجائعاً وقلت ضاحكاً:

- لماذا تخوّنينني؟

فطرفتْ بعينها. وقلتُ وأنا أنظر إلى الأرض بعينين جاحظتين:

- يا عزيزتي، إنني جائع.

وكانت تنظر إليّ وكانت مشدوهة. وقلت:

- لا تنظري إليّ.

وواجهتها بوقار ويدي خلف ظهري. وقلت باحتفال:

- سأسافر غداً بقطار الصباح.

Twitter: @ketab_n

صاحت نادرة:

- إلى أين يا عزيزي... ماذا حدث؟

ونهضت من مكانها بجزع. قلت بهدوء وبصوت واضح قوي:

- ألم تسمعي؟

وصرختُ بصورة مفاجئة:

- أيتها الخائنة!

-واندفعتُ وراءها كالأعمى وأنا أصيح مذعوراً وهي لا تكف عن النظر إليّ. وبكت وهي تهتف:

- أنت مجنون، ماذا بك؟ ماذا حل بعقلك؟

وأمسكتها من شعرها وأطلقت قهقهة جوفاء قانعة. كانت مذعورة تنظر في عينيّ رأساً، فبهرتني. وتركتها، ونهضت، وقلت:

- لقد عرفت كل شيء.

فقالت باستعطاف شهواني:

- أرجوك لا تعذبني، أرجوك، أرجوك..

قاطعتها قائلاً بخفة:

- إذاً فهو شاب... هه.

وصحت بغضب:

- تكلّمي أيتها العاهرة.

بدت خائفة جداً. وفكّرتُ مقتنعاً: هذا صحيح اذن.

واندفعت إلى باب المطبخ فاصطدم رأسي برفّ طويل وسقطت نظّارتي. وصاحت نادرة برعب:

- أرجوك يا عزيزي أرجوك.

Twitter: @ketab_n

عدت إليها فأبرزت السكين الطويل وقلت بجفاف:

- ستموتين.

ولذّني أن أكون قوياً وجافاً كالأبطال وأعليت حاجبّي وغضّنت فمي بصرامة وأنا أهددها بالسكين الطويلة. كانت تنظر إليّ. ودارت عيناها في محجريها وفجأة قفزت كالقطة ودفعتني بقوة فسقطت. واختطفت السكين من يدي المرتجفة ووقفت فوقي هازئة وإحدى قدميها على بطني. وصاحت وشعرها يتهدل على وجهها كالمجنونة:

- أيها الحيوان، سأريك.

درسناه فعلاً، ولم أرَ حياتنا خاطئة كثيراً. وصرخت نادرة كالمجنونة:

- نعم، سأهرب، إنني أحبه، ولكن أيها القذر، ستموت غيظاً.

وعوت: «-سامي!».

فانبثق إلى جانبها شاب كان مختبئاً في إحدى زوايا الغرفة كما يبدو، وبدأ يضحك وكان له شارب حذر. وقالت نادرة:

- كنت ستسافر أيها المأفون؟ آه ه ه ه! (وأطبقت أسنانها الجميلة). إنني أنا التي ستسافر، الآن، سامي وأنا. سوف نعيش بعيداً عن عينيك السافلتين.

- وقلت وأنا مضطجع على ظهري:

- إنك زوجتي.

فضحك الشاب كاشفاً عن أسنانه الحادة الصغيرة. ورأيتهما

Twitter: @ketab_n

يغادران الغرفة وأنا راقد على ظهري. وكان السقف يواجه عيني، صقيلاً يكسوه الغبار وفيه أخاديد يملؤها ذباب أسود. وكنت أسمع صوت الضحك وهو ينحدر أسفلاً، نحو الأرض، نحو أخفى الأماكن. وبقيت في مكاني وأنا أهمس للسقف بخبال:

- إضحك. إضحك أيها الكلب

(نشرت في *ملحق الجمهورية الأدبي البغدادية* رقم ٦٠، العدد ١٠٠٥ الخميس ٢٧/١٠/١٩٦٦)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

غرفة مهجورة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أوقف يوسف حركة يديه وأنصت. كان يسمع وقعَ الحذاء النسوي بوضوح، اذ يقرع الدرب الإسمنتي: ترك. تراك، ترك. تراك. وألقى من يده القُفّاز المطّاطي الذي كان يتلهّى بأن يضع أصابعه الخمس الصفر بين فكّي المقصّ ويضغط عليهما بحركة واحدة متدرجة، فتنبتر الأصابع. وكان قد وجد فردة القُفّاز هذه في قعر صفيحة فارغة. وانحنى فجمع رؤوس الأصابع المقصوصة من الأرض ووضعها فوق المائدة الحديدية بجنب القُفّاز. ثم تلاشى وقعُ الحذاء، وغطست الغرفة في الهدوء العميق الذي يلّف مبنى المستشفى وقت النهار. ثمّ ذبابات تئزُّ محبوسة بين زجاج النافذة والشبكة السلكية، والشمس رخوة تتدلى وتنتشر على ساحة الحديقة كطبقة من الجلاتين الحار.

نظر من النافذة، فرأى روزيت تتحدث مع الطبيب الإنكليزي الكهل الذي يحمل بين يديه كراساً بأسماء المرضى. وتنحّى يوسف عن النافذة.

كانت السيارة التي تحملهم إلى المستشفى قد توقفت بهدوء امام بيت روزيت، هذا الصباح، بعد ان نَقَرَ السائق على الزمّور مرة واحدة. وخرجت روزيت بعد لحظات، دافئة لا تزال من فراشها

Twitter: @ketab_n

ومفعمة بشهوة صباح مشمس، واقتربت من السيارة ثم التقت نظرتها بنظرة يوسف الذي كان قابعاً خلف زجاج نافذة السيارة يرقبها باعتناء. منذ البارحة بدأ يجد صعوبة كبيرة في أن يواجه نظرة هذه الفتاة. وكان، طيلة فترة الصباح، ينتظر أن تفاجئه بنظرتها المقلقة. وقد انتهى من جولة العمل الأولى في قاعات المستشفى ثم أسرع فاختلى في هذه الغرفة، ولم يذهب إلى غرفة الجلوس، حيث تستريح الفتيات العاملات وعمال التنظيف. ظل في هذه الغرفة أكثر من عشر دقائق راقب خلالها كل شيء. كان فيها مقعد محطّم ومنشار معلّق بمسمار فوق مغسلة بيضاء يغطيها التراب، وكان جوّ الغرفة معتماً والسقف الضارب إلى الاخضرار مشطوراً في الوسط من أثر المطر، وقد وجد فردة القُفّاز ثم فتّش عن الفردة الأخرى، فلم يجدها، وأشعره ملمس المطاط بالغثيان حين حشر يده في داخل القُفّاز الضيّق وبدت، وهي مفتوحة مبتورة الأصابع، كسرطان أبيض مقلوب خرج عن طوره في محاولة مستميتة للانتصاب على قوائمه الخمس. كانت أصابعه تشفّ من خلال المطاط الأصفر الرقيق بشعراتها السوداء التي لاحظ، لأول مرة، أنها تنتشر على شكل مجموعات متساوية فوق السلامية الأخيرة من كل إصبع، وأنَّ إبهامه يتكوّن من سلاميتين فقط. أحسّ برغبة في الخروج. وكان قد حاول أن يفتح النافذة، لكنه وجد صعوبة في ذلك، وبدت محاولته هذه غريبة نوعاً ما حين أدرك أن النافذة مسمَّرة.

خرج ببطء إلى الحديقة التي تتخللها ممرّات ضيقة من الإسمنت. وانعطف حول هيكل الغرفة، فوجد روزيت أمامه مباشرة. ولم يكن بارزاً فيها غير عينيها السوداوين في هيكل من

Twitter: @ketab_n

البياض: وجهها، وعنقها، وثوب العمل الأبيض الذي ترتديه.
وقال بفضول:

- ما الذي تفعلينه هنا؟

فقالت: - اسمع. لنجلس في مكان ما. أريد أن أحدثك قليلاً.

قال يوسف: - أين؟

فقالت: - في غرفة الجلوس إنها خالية الآن.

فوافق بهدوء، وسار خلفها. مشيتها، كان هذا هو الذي نبّهه اليها حين جاءت لتعمل في المستشفى قبل سنة: مشيتها. كانت ساقاها ممتلئتين بيضاوين وفيهما تقوّس طفيف جداً يعطيهما طابعاً جنسياً غريباً. وكان خصرها الضيق الذي تتبعثر تحته مباشرة فخذان راسختان لهما حركة سرية مترجرجة وركبتاها اللتان تظهران من تحت الثوب بفعل حركة ردفيها الجانبية ذات الإيقاع الواحد، كل ذلك قد جعل يوسف لايستطيع أن يتمالك نفسه. وذات مرة، بعد ليلتين مؤرقتين قضاهما بالتفكير والتمثيل ووضع الخطط والاستبشار السابق لأوانه بقصة حب ناجحة- حاول أن يكلّمها. وبدا ذلك عسيراً جداً وهي إلى جانبه. فشل فشلاً ذريعاً حين حاول أن يحضنها فدفعته عنها بدهشة أولاً ثم باشمئزاز. وخرجت ولم تشجعه قط على الاقتراب منها بعد ذلك اليوم.

في كل صباح كانت السيارة الطويلة تقف أمام الباب الذي تعيش خلفه روزيت، وكان يوسف يعيش هذه اللحظة بخيال وإفراط. كان يدفع بكتفه زجاجة السيارة هائجاً حتى ليفكر بأنه

Twitter: @ketab_n

سيسمع صوت تحطم الزجاج في أية لحظة. وتخرج، فيلتهمها يوسف وتتحرك السيارة.

كان يعرق في جوف العربة المصنوعة على هيئة قبر ذي عجلات، وهو يمر خلال هذا كله، صباحاً بعد آخر. ثم يسترخي. كان ذلك شبيهاً بالحالة التي انتابته حينما ضاجع لأول مرة المرأة الوحيدة التي نام معها في حياته كلها، وكانت بغياً مذعورة . وبعد شهور أيقن أنه يجب أن يفعل شيئاً ضرورياً وبدونه لن يحدث أي شيء البتة.

ثم يقوم بفعل غريب. كان ينتظر في حرارة الصيف وفي الدبق ساعة كاملة أحياناً، خلف نافذة الغرفة المهجورة التي لا يدخلها أحد. وتخرج روزيت فينتظر قليلاً ثم يتعقبها وهو شبه مذهول. دخلت مرّة إلى دورة المياه فاقترب من الباب وقد أرهقته الدفقة الهائلة من السُكر التي ملأت رأسه ورجليه الرخوتين. وانحنى، فوضع عينيه على ثقب المفتاح.

كرر ذلك فيما بعد، ورفع رأسه، ذات مرة، عن الثقب فتسمّر في مكانه. كان مريض عجوز يقف على مبعدة منه، يراقبه بهدوء. وأجفل فاندفع خلف المبنى وأسرع إلى الغرفة المهجورة حيث وقف يرقب العجوز من خلف النافذة وهو يلهث. وطفق العجوز يتنزّه. كان في الأيام التالية يمر من بعيد فيرى العجوز مضطجعاً في سريره يتأمل المروحة البطيئة التي تشقُّ هواء الغرفة المثقل بروائح الأدوية والبول والصابون. وفكر أن يسمّمه لكنه فكر أيضاً بأنه مجرد ممرض وشبه خادم، فأزاح الفكرة إلى جانب. وأكد لنفسه فيما بعد أنَّ الرجل العجوز شخص شبه مجنون من تأثير المرض، أو انه

Twitter: @ketab_n

يعيش في غيبوبة. ولعله كان غائباً عن الوعي حين رآه. وربما لم يره قط.

على أن كلَّ شيء سقط عن موضعه وامتلأ يوسف يأساً و غيظاً حين ظهر هذا الشاب، في أحد أيام الخريف الماضي، ورآه يوسف يتحدَّث إلى روزيت. ظهر للمرة الثانية في موعد دخول الزوار، وولج مع روزيت إحدى الغرف الخلفية. غادر الزوار جميعاً، ولم يره يوسف يخرج، فبدأ يشعر بأنه في موقف تافه: كان قد اصفرّ وبدأت أصابعه ترتعش قليلاً، ورأى ذلك بوضوح حينما أراد أن يدخّن سيجارة، واستُدعي إلى العمل فلم يعلم متى خرج الشاب، وأخذ هذا يأتي بين يوم وآخر.

وخلال شهور الشتاء الأولى هذه بات أكثر الممرضين والفتيات والممرضات أنفسهنَّ على علم بالعلاقة. حاول يوسف ذات مرة أن يقبّل خادمة كانت وحيدة معه في الغرفة، وكانت أرملة شابة لها صبي واحد غالباً ما تستصحبه معها، وأخذ يهذي لها بأنه سيتزوَّجها، محاولاً أثناء كلامه أن يعانقها. كانت الأرملة مذعورة تترك له صدرها وقد تسمّرت عيناها في الباب. ثم كفّ عن محاولاته اليائسة حين أجفلت منه إذ رأته يرتعش شاحباً ويهتز بتشنّج. قالت باضطراب وهي تصلح من شأنها:

- ماذا . . . حدث؟

فلم يُجبْ، وظل يحدّق في أصابع يديها وهي تزرّر من جديد مكان النهدين. وبقي في الأيام التالية يتجوّل منفرداً. كان قد اكتفى بتلك العملية الصغيرة التي يمارسها مع روزيت في كل صباح: انتظاره المبهظ، وضغطه على زجاجة السيارة بغتة، والتهام ذلك

Twitter: @ketab_n

الجسد الأبيض الخارج إلى الصباح حاملاً معه روائح فراش دافئ، ثم الهدوء واللامبالاة والمضيّ في العمل القذر ببلادة وعدم الشعور بالزمن والسقوط في زاوية مشوّشة من التفكير الحيواني ممتزجاً بأحلام غير واقعية عن نساء شبِقات يُحطن به ويستسلمن له، وبروزيت الراكعة، عارية، في غرفة لا تضمُّ غيره وغيرها.

وقالت بلطف:

- لماذا فعلتَ ذلك؟

فقال دون أن ينظر إليها:- ماذا تقصدين؟

قالت بفتور: - تعرف ما أقصده جيّداً.

قال: - إنني لست أفهم.

فواجهته لأول مرة.

- إسمع، أرجوك أن لا تكذب. إنك أنت الذي أخبر الشرطي، أليس كذلك؟

قال يوسف: - أي شرطي؟

وتظاهر بالبله، لكنه في دخيلته كان مسروراً بعض الشيء، وبغموض، من كل ما يجري. من استجدائها له ومحاولتها استشفاف الحقيقة من كلامه المماطل. فليستمرّ إذن. وهزّ رأسه، صمتت، ثم بدأت الدموع فجأة تتسرّب من إحدى عينيها وترطب خدها. قال بصعوبة:- انني لا أكذب صدّقيني.

فقالت وهي تبكي بكاء شديداً:

- إنك تكذب. ولا أدري ما الذي، ما الذي..

وأجهشت. ثم أكملت:

- ما الذي تريده مني، أريد فقط أن أعرف هذا.

Twitter: @ketab_n

ومسحت وجهها بمنديل أنيق لفت انتباهه.

- ثم ألم تخجل؟ إن أحداً لا يفعل هذا، إلا إذا كان سافلاً. ماذا فعلت لك؟ هل لأنّني صددتك في تلك المرة ؟ ولكنني.

وضمّت شفتيها بقسوة على أسنانها، وكادت تختنق وهي تضع يدها على عينها اليسرى.

- إنني فقيرة و. . .

فقال يوسف بصوت أجشّ:

- أنا أيضاً فقير.

- وأعرف جيداً أنك لا أنت ولا غيرك سيتزوجني، طالما كانت هذه. . .

وضغطت بيدها على عينيها الصناعية. فقال يوسف:

- أرجوك لا تبكي. قد يأتي أحد ما.

وترك لها دقيقة تبكي فيها جيّداً. كان قد أحس برغبة شديدة في الاتكاء على كتفها، حين رأى كيف يميل عنقها الجميل على صدرها فيبرز البياض الدافئ الذي تحت الشعر. ونهض فجأة. وقال معترفاً:

- اسمعي. لقد كنت أنا.

وإذ لم تأبه له، قال بتهوّر:

- إنني أكرهه لذا لم أستطع أن أتحمل أكثر من ذلك.

فقالت بصوت مغول دون أن ترفع رأسها:

- ولكن ماذا فعل لك؟ ماذا فعلت أنا؟

وأضاف يوسف:- وعلى كل، فإنني لست بقوّاد.

وانتظر. كانت قد جمدت، خافضة الرأس، وسط محاولة

Twitter: @ketab_n

لتجفيف قاعدة خدها. ثم قال وهو يحس بأنه مذنب وبأنَّ شيئاً آخر كان يجب أن يحدث بدل كل هذا.

- لماذا لم يكن يخرج كسائر الزوار؟ وإذا أردت أن تقابليه في أي مكان آخر فماذا يهمني، حقاً افعلي ما تشائين، ولكنني، في وجوده هنا، لا أستطيع القيام بأي عمل.

رفعت رأسها باستنكار. فقال مغتاظاً:

- نعم، لا أستطيع. لذلك أخبرت الشرطي. قلت له إن أحد الزوار قد تخلّف. فجاء وطرده. وسوف ينتظر خروجه منذ الآن، طالما هو قد عرفه، مع بقية الزوار. وإذا لم يفعل..

كانت تراه بعينين واسعتين. وعلى أنفها قطرة دمع دافئ، فمها المنفرج، وصدرها المضيَّق عليه بسبب الثوب المشدود، كانت تثيره جنسيّاً بشكل غير مفهوم.

قالت بعد أن مسحت وجهها:

- إذن، أيها القذر. إنك...

و أعماها حقد شاذ، واشتبكت أسنانها بكلماتها فاختنقت واجهشت تبكي بكاء عميقاً. لاحظ بياض عنقها مرة أخرى. ثم وإذ كان يفكر بنفسه وقد أرضاها لا يدري بأية وسيلة أو بأيٍّ شيء، وتعانقا فاتكأ أخيراً هكذا، ونهضت وبدأ يقبّل عنقها بهدوء - إذ كان يفكر هكذا، نهضت الفتاة فجأة وصفعته بوحشية ثم خرجت بسرعة وتلاشت. بقي واقفاً في الغرفة، وحده، يصغي باستغراق للرنين الذي يطنّ في أذنيه.

حين دخل المنزل، كان أبوه يطبخ العشاء. ثم فرغ من ذلك وبدأ يمسح أرضيّة المطبخ بهمّة شديدة. وبدّل يوسف ثيابه بأناة، ثم

Twitter: @ketab_n

جلس يراقب أباه. كان المطبخ دافئاً فكانا يقضيان وقتهما فيه: يأكلان ويتحدثان ويسمعان الراديو. قال يوسف:

- ماذا طبخت اليوم؟

فأجاب أبوه وهو يلهث:

- فاصوليا. ثم هناك فاكهة. ولبن أيضاً.

قال يوسف بضجر ساخر:

- أطبخ شيئاً آخر غير الفاصوليا.

فتساءل أبوه وقد كفّ عن عملية المسح: - ماذا مثلاً؟

ففكر يوسف. ثم قال: - لاشيء.

وفتح الراديو. انتهى الأب، فجلس يدخن سيجارة بانتعاش. وأخذ يسأله عن الأغاني باهتمام. ثم أصغيا إلى نشرة الأخبار في غشاوة من الصمت. بقيا يتأملان السقف وأحياناً الأثاث العتيق. ثم استفسر الأب قائلاً:

- من هذا الذي يغني؟

فأجاب يوسف بوجوم: - إنه عبد الوهاب.

قال أبوه باستغراب: - ولكن هذه إذاعة بغداد؟

فاجاب قانطاً: - بالطبع.

قال الأب: - وهو لا يعيش في بغداد، كما أعلم... وإذن؟

فنظر يوسف إليه ببطء. تأكد لديه، للحظة، شيء غريب: كان أبوه يفكر بأنَّ أيَّ مُغنٍّ في أية إذاعة يغني شخصياً في كل مرة، أي أنه موجود دائماً تحت الطلب. ولم يخطر بباله أن الأغاني مسجّلة على أسطوانات أو أشرطة أو أي شيء آخر.

وضحك، فرأى أباه يضحك باستمتاع هادئ. ثم لم يستطع أن

Twitter: @ketab_n

يتحمل أكثر، فأخذ يعوي بضحك، مما أقلق والده فسأله وهو يضحك بتردّد وانزعاج: - حسناً، ماذا دهاك؟

حين اضطجع يوسف في فراشه البارد كانت صورة روزيت تأخذ وجوده برمّته. ونظر في عينيها وشاركها حزنها وأفكارها وكراهيتها الجميلة له وغثيانها من حضوره. ثم رآها تخلع ثيابها ويقترب منها خلسة ليحتضنها من الوراء، وتمدّ يدها إلى عينها وهي تضحك باغتباط، ثم تعيدها إلى المنضدة وفي قبضتها العين الصناعية الجامدة. وفجأة تستدير إليه وهي تضحك بخلاعة وأحد محجريها فارغ، عارٍ كردهة مضاءة.

(نُشرت تحت عنوان: «غرفة غير مستعملة...» الآداب اللبنانية، العدد السادس، حزيران ١٩٦٦، وقد غيّر المؤلف العنوان في الطبعة الألمانية المزدوجة اللغة).

Twitter: @ketab_n

الحفرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

بعد نصف ساعة من مرورها، عادت العربة تقطع الزقاق في بطء والحوافر تضرب الإسفلت القديم رخية، وكان يصغي إليها في الليل. وبعد أن انتظر قليلاً نهض فنظر من النافذة. وكانت غرفته عالية صغيرة فرأى الحصانين وسيورهما الجلدية غامضة تتألق، ثم سمع صوت الحوافر، نفس الطير يغني. وكان قد كفَّ، ولم يكن بُومةً، ولعله في شجرة خوخ جافة رآها في الحديقة الخلفية، وكانت مهملة، الحديقة، صفراء فيها أكوام من الشاي المستهلك. عاد لينام، وفكر بأن الحوافر التي تبتعد كانت تقول: يوسف - سافر، كلكك، يوسف - سافر، كلكك - كلكك...

واضطجع منفتح الوجه في الظلمة، والمقعد خلفه يحمل سرواله وسترته وجواربه. والحقيبة على الأرض. وعاد إلى نقطة وحيدة كانت تملأ رأسه منذ الصباح، وكانت أهم شيء في حاضره ومع ذلك فقد كانت لا تستحق الاهتمام لأنها شيء قرر أن يؤديه، فهو حاصل، لا بد، وذلك في الصباح، غداً. كان يجب أن لا يفكر بقوة، وأن ينام.

كان النهار يتسرب في شعرها، وأنت واقف في الغرفة الصغيرة تعرف كل شيء وتخاف كل شيء وتتكلف كل شيء لأنك واثق من

Twitter: @ketab_n

أنك مخلص جداً ولا مبال جداً، حتى، بحيث تتفهم كل شيء. «نفسك قديمة يا يوسف، بدّلها»، قلت لنفسك: «بدّلها، بدّلها،»، وقلت:

- استريحي.

الوقت كان قصيراً جداً. وانعكاس وجهها يتكئ على النافذة ضجراً.

- ستدعوني أمي. لديّ غسيل، بعض الملابس.

لقد تحدثت معك بغرابة قبل أن تذهب، تاركة في الغرفة شبه الفارغة صوتاً مهيناً.

- يوسف (بكت) يوسف (كنت قد قررت أن تفضح كل شيء) إبق شهراً آخر، أو، خذني. وانتظرت. ولكن نفس الصوت طرق الفراغ أيضاً. فراغ نظرتك التي مسختك جباناً.

- خذني وسأقبل الحياة كيفما كانت، إنك ستذهب، أدري، لن تأتي (اختلجت) ولكن لماذا (ضحكت ببؤس) لماذا تأتي؟ صحيح؟

- اسمعي أرجوك، لحظة واحدة.

كانت صمّاء انغلق وجودها تجاه نظرته فجأة، تركت الصخرة تسقط. يئست:

- اذهب، لا يهمُّني. كنت أعرف أنك ذو قلب نظيف، ولكنني لم أدرس وأنا غبية لا أفهم. ويعرف الجميع أنني لا أتكلم إلا كالبقرة. ولكنك حقاً لا تدرك، إسمع، لقد.... لا أدري، ولكني معك أتكلم بشكل آخر. أنا غبية لأنني فكرت...

Twitter: @ketab_n

- لا تقولي، أرجوك، لا تقولي ذلك. ولكن فقط لو فهمت أكثر، إنك تفهمين. بل تفهمين جيداً، ولكن فقط...

فقط. وقف يوسف وحده. كان النهار سائباً يفرك الجدران والمقاعد (رغم أن الغرفة كانت ذات مقعد واحد وحصيرة مستعارة، غرفة طالب، سوى أنه لم يكن طالباً)، كالفضة، وقد غذّى شعرها بلون عاصفة، نحاس ومياه شفافة. وكانت تقريباً رائعة، شاحبة كالصوان ذات شفتين بلون النبيذ. وأنت سلبي، كالورقة المقطوعة، لا تعرف بعد إن كنت ثابت الرأي، جدّفت البارحة، شتمت هذا الوجود الدنيء، سلحفاة كانت تناورك، تهزأ منك برأس مستطيل غير ثابت كلما سرت، حتى إذا استدرت لم تجد رأساً ولا عينين ولا شيئاً يصيبه حقدك المقذوف.

ذهبت الفتاة، والأم لم تنادها. رأيتها في الفناء تحت شجرة الخوخ وفي يدها كتلة ملابس تمر إلى الحمّام البعيد بين كتفي المنزل المسطحتين. سافل. إنها هكذا تفكر، ربما. إنك سافل في نظر مخلوقة شاحبة ورائعة تقريباً، الآن. وَغدٌ شاب يهرب. ولكن ليس كما في المآسي السطحية، أي بعد إغراء فتاة وخداعها، كلا، لم تلمس حتى نهديها، إلا بشكل طفيف وقبلة فقط هي التي أجرت الألفة كالمسيل الضعيف بين رأسيكما، ضاحكين كلما التقت عيونكما، نادمين ندماً ضئيلاً لا يحمل معنى القدم سوى أن التفاهة الأصيلة في يوسف كانت شيئاً حمل إليه، آخر الأمر، تعاسةً من نوع ما.

فالواقع إنها لتفاهة أن يذهب الآن بكل هدوء وممتنّاً من هؤلاء الناس. الأم لأنها كانت تحمل إليه، أكثر الأيام، صحناً من الحساء

Twitter: @ketab_n

فيه لحم وخضروات شهية وحارة، والأب، لأنه أصلع شائب الشعر قوي الذراعين مغضّن الجلد في وجهه وعنقه برمّته، وضخماً نحيفاً في الأعلى كالعنكب. والفتاة أخيراً. كانت تفاهة أن يفكروا به بعد كل هذا على أنه شاب حقير، وأن يقتنعوا بأنه يستحق النسيان (ولكنهم لا ينسونه بالتأكيد). لقد كان عطفاً عائلياً. لأنهم كانوا يرونه منهكاً، أجوف يعود من أغوار المدينة وفي يده جريدة بها كعكة خفيفة كالفلين مبقعة بالسمسم. وخبز وأي شيء آخر. كان يأكل. كان لا يذكر إلا الصباح ذلك، ووجوه الموظفين التي لا تتأثر مطلقاً رغم أن جلودها تقسو. بمجرد رؤيته سيعرفون، للحال، أنه يطلب. لم يجد عملاً لنفسه، ولكن هذا، خلافاً لما يجب أن يكون، لم يؤثر مطلقاً في المنطقة الباردة التي رقد فيها تفكيره، لقد تعلّم أن يقرأ بحيث يستطيع أن ينسى الجوع أو القلق أو المذلة، يستطيع، رغم أنه كان يخاف. غلبه مرة خوف مخبول، ثم هدأ عندما فتح النافذة خائفاً لا يزال. والزقاق يهزج في وحولة ضوء القمر الرملي، لم ينتبه لأي شيء. كانت المدينة تتنفس بثقل تحته، وكانت حفرة تائهة أمام الفضاء. فيها مخلوقات كانت تطرده ولا تكترث، وتضحك وتمارس الأكل والفسق، ثم تنام. دون أن تتحرك، كانت الحفرة تحته، وكان فوقها. كان أعلى منها، تائهاً أيضاً. ولكنهم كانوا مخمورين بروائح الحفرة. دائخين. وفكر: «وهذا هو السبب في كل شيء: لأنهم دائخون». كانوا لا يفهمون لأنهم كانوا دائخين. وفكر وهم يعتذرون: «أنت تعلم، يا يوسف، بمشكلتنا. إنتظر، إذن». ولكنهم لم يستيقظوا ولا مرة، أبداً. شعر في حنجرته بهواء بارد جعلها كثيفة، جفّفَ لعابه، فشرب ماء. وقد

Twitter: @ketab_n

لا يستيقظون. وعلى كل حال، فيستحيل أن يستيقظوا كلهم. دفعه واحدة.

توقف الطائر الليلي فجأة، فتهالكت أفكاره. ونام.

قبل أن يصفر زجاج النافذة. فتح عينيه. وفيما بعد، وإذ كان الأصفرار يأكل كل شيء، ارتدى سرواله، وقميصه، ووضع المنامة الصيفية (لأن الشتوية كانت قد ظلت في بيت أهله، في المدينة الأخرى)، داخل الحقيبة، مع الكتب وأشيائه الأخرى. ولفّ فراشه ثم ربطه بالحبل الذي جاءت به الفتاة أمس، ووضع الكتلة في زاوية. كانت في جيب سرواله علبة سجائر وعلبة ثقاب. من بقايا البارحة، نعم. وقد قال: «ليلتي الأخيرة»، لأصدقائه في المقهى، وأنفق نصف نقوده، ولم يبق له غير أجرة السفر وبضعة دراهم. بقايا عودتي، فاشلاً، أنا الذاهب للغزو ولكن بأيٍّ شيء وأية أداة وكيف: كل هذا جابهه عندما وضع رجله على رصيف المحطة، فخاف، ولكن بجرأة كذلك. أشعل سيجارة، وأخذ يدخن.

لمح خلال النافذة والد الفتاةِ، في روب مغبرّ يشدُّهُ حبلٌ أخضر حول وسطه، وكان نعلاه قديمين أيضاً. والصباح على رأسه الأصلع، ذهبياً ناشفاً. ذكّره بالإفطار. وكان فراغ حي قد بدأ يصفِّق في قعر بطنه فشعر بجوفه قاعة فارغة تملؤها الأصداء. وقضم شيئاً من الخبز اليابس، فتحطَّمَ بين أسنانه كالخزف. ثم بلله في الكاسة، وراح يأكل. وعاد الرجل في الزقاق بِطَبقٍ فيه قشرة بيضاء، وعلى ذراعه خمسة أرغفة. ووقف يحدث جاراً في منامة مغضنة، شعره بلون الفلفل وقد احتقن جلده بفعل النوم. نظر يوسف إليهما وفجأة فكر: «هذا هو كل شيء، سأنتهي مثله، مثلهما».

Twitter: @ketab_n

وكان قد استدار عن النافذة وهو يأكل الخبز، نادماً على شيء ما، على الليل وعلى قراره الذي اتخذه. لقد مرّت إذن ليالٍ طويلة هي الآن لا شيء، كانت كل شيء والآن، أين هي؟ هل أستطيع أن أخرجها مرة أخرى كما أخرج ملابسي من الحقيبة، وألمسها؟ تافه تافه، لأنك جئت وستذهب وفي مكانك قد يبقى حذاؤك وثيابك ولا شيء آخر. تذهب أنت ولا يستطيع الآخرون إلا أن يلمسوا ثيابك ويخرجوها من الحقيبة أو يضعوها فيها، ولكنك لست في الحقيبة. أخرج. ولكنَّكَ تبقى ساهراً في المكان الذي تعرفه، يوسف، أخرج يا يوسف، ألديهم مصباح علاء الدين؟ الطفولة، والزمان الذي تلاها انحدر إلى جوف البالوعة كورقة صفراء، وما من أثر، وما من أثر. والآن تحسُّ بأعصابك تحسب الزمن، واحد، اثنان، واحد، واحد. . . ولكنه يذهب حتى لو حبسه. كان الرجل العجوز قد صعد الدرج وطرق الباب. وقال بخفوت: «يوسف، يوسف». ولكنَّ يوسف شدَّ حنجرته بيأس، فكفكف أنفاسه، يوسف، ثم ذهب. نزل في بطء. كان يهبط إلى أسفل، إلى قرار هوّة، إلى قبر. كان قد أعدّ في الليل أن يودّعهم بهدوء ولا مبالاة وديعة وشيء من رزانة أيضاً. ولكنه أقنع نفسه بأنه ما زال جائعاً جداً: سيأكل بانتظار إقلاع السيارة. ليسرع بالذهاب إذن. وفتح الباب، فرآها.

(نشرت في *العاملون في النفط*، العدد ٤٩، آذار ١٩٦٦)

Twitter: @ketab_n

العلاقة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أن تكون خلف الباب عائلة، هذا الباب القديم. عائلة تتحدث ويرنّ الجرس فيرمق الجميع الباب. أن تكون امرأة ورجل وأطفال، أن تكون فتاة في السابعة عشرة، أن يكون هناك غريب يحمل رسالة إلى فتاة خلف الباب، هذا الباب القديم للمنزل.

الجرس،

وقال يوسف: إنني صديقه. فقالت الفتاة جادّة: إنك لست مثله.

- كيف تعلمين؟

فلم تجب.

وقالت: منذ متى تعرفه؟

قال يوسف: هذا الشهر.

ورمق حقيبته الصغيرة، وكان جالساً، قالت:

- إني آسفة، لا أحد غيري، كنت سأصنع الشاي.

فصاح: لا حاجة للشاي. أرجوك.

- خرجت أمي وأبي لم يعد.

- أنت وحيدة إذاً؟

- نعم.

Twitter: @ketab_n

وقالت: فريد خطيبي، كما تدري.

فقال يوسف: نقضي وقتنا معاً. دائماً.

- ماذا تفعلان؟

نتنزه. ونقصد السينما أحياناً.

- فقط؟

- لا نفعل أشياء كثيرة.

ونظر إليها. بدأ يشرح لها، فقال:

- ينتهي العمل في الغروب فنذهب جميعاً إلى المخّيم.

- هل أنتم كثيرون؟

- في العمل؟

- نعم.

- عشرة. وصاحب المعمل لايشتغل. له مكتب.

قالت: أتعيشان معاً؟ أنت وفريد؟

فقال بسرور: لنا غرفة.

- غرفة؟

وضحكت ثم قالت: هل هي فارغة؟ ألديكما شيء فيها؟

- نعم، بالطبع هناك كرسيان وطاولة. وراديو. وتوقف ثم قال:

- ومصباح أيضاً.

فانفجرت تضحك: مصباح أيضاً؟

وامسكت فمها. قال وقد أصبح حائراً:

- لأن بعض الغرف بلا مصابيح. فيها فوانيس نفط.

- آه. أتتأخران في الليل؟

Twitter: @ketab_n

ففكر ثم قال: أحياناً.

كانت على المنضدة تفاحة خضراء بدأت تجف، فأخذها في يده. وكانت الفتاة تنظر من النافذة، في الغسق الذي يفرش الشوارع والسقوف. نهضت الفتاة، وقالت:

- تأخر أبي. وأمي أيضاً.

وأشعلت المصباح.

قالت بعد لحظة: إنَّ حقيبتك معك. هل جئت من معمل الكبريت لتوّك؟

فقال: أحببت أن أوصل الرسالة إليك أوّلاً.

- كنت تستطيع الانتظار.

نظر إليها وكانت ترقبه. ومرّت بينهما لحظة نظر محض. قال:

- أردت أن لا أؤخر الرسالة.

وعبث بأصابعه. رأى أمام عينيه عنكبين!!! ورديين يتصارعان، فحسم بينهما ودلاّهما في حضنه. كانت تنظر إليه.

قال: لا فرق، على كل حال.

فلم تقل شيئاً، وكان يسقط على عينيها ظلّ شعرها.

قال بقوّة: فريد دائماً يفكر بك.

ثم قال: أعتقد أني سأذهب.

ونهض. قالت:

- ستركب الباص؟ إن الموقف قريب.

فصاح وهو ينحني ليحمل الحقيبة: هذا لا يهمّ.

وانتصب واقفاً وكانت تنظر إليه.

Twitter: @ketab_n

لم يعرف ما يقول. كانت ترمقه في الصمت.

وودّعها ونزل الدرج.

أن تتحدث مع فتاة، في غرفة عالية وقت الغسق. أن تجلس ويداك في حضنك. وفي قبضة يدك تفاحة جافّة وجنب الكرسي حقيبة. أن تعرف، حين تنظر إليك الفتاة، بأنها تفهم لماذا تتأخر عن أهلك، في نهاية السفر، أن تهرع وتدقّ الجرس وفي يدك رسالة إلى فتاة من شخص يقاسمك غرفة، أن تأتي، قبل كل شيء، من مدينة مريضة، من عالم مقفر فيه بيوت ضخمة ومخازن وفئران. أن تتكلف أمام فتاة نحيفة وحدها في غرفة عالية. أن تعطيها رسالة ستُبكيها بضعَ ليال.

وقال يوسف لنفسه: ها هو موقف الباص.

وحاول أن ينشغل عن نفسه التي بدأت تخاف.

في الباص المترجرج لفّت رأسه غشاوة فجأة. ورأى في الزجاج شبح المرأة التي أتى بها فريد قبل أسبوع. كانت أمامه، بيضاء، ثم هدر الباص فاختفت في زجاج النافذة.

وقال بغضب: لقد طردني، الحيوان.

وكان قد انتقل إلى غرفة أخرى وترك المكان لفريد والمرأة المارقة. وفكر بأهله: سأراهم الآن.

ولكن عبثاً، لم يستطع يوسف أن ينشغل بصورة أهله عن وجه الفتاة، في ذلك الباص الكئيب. لذلك، استسلم واعترف بأنه كان قبل أن يخطبها فريد يفكر بها في نومه، أو يناجيها، أو يحبّها.

وفكر بحمّى: ستقرأ الرسالة.

ستقرأ الرسالة وتبكي. ستقضي ليلة كالميّتة، لأنه يعرف جيداً

Twitter: @ketab_n

ما كتبه لها فريد المستهتر. وفكر يوسف بأنه لن ينام الليلة بدوره. وتوقف الباص، فنزل منه.

حين جلس في غرفته، كان نظيفاً مرتاحاً. ولم يستطع إلاّ أن يشعر بأنه آمن، في نوع من الطمأنينة المقضي بها. إلا أن صورة الفتاة وهي تبكي ألحّت عليه. ففكر أنه شيء يبعث على اليأس. ولكنه قال لنفسه بأنه شيء سيزول أيضاً. ليلة فقط.

وقال فجأة: هكذا أحسن.

وابتسم لفريد.

(نُشرت في *العاملون في النفط*، العدد ٤٤، تشرين الأول ١٩٦٥)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

الأيام الأخرى أيضاً

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت الشمس كالمعدة، يتسرّب من ثقوبها عصير فاتر سقيم فيه رائحة المطاط والشوارع المرشوشة والدكاكين والسينما، وكانت معزولة عن الناس، وكان القرف ينتشر في نفسه كمحلول الفولاذ. وغرق يوسف في الهواء المبرد الذي يتجمع أمام السينما، وتفرج على الصور التافهة التي خلف زجاجة العرض، ونقل بصره من الحائط إلى الرجل والمرأة. وكانا يتفرجان، وكان الزوج يعرفه وكذلك المرأة. وانتظر. وكانت أفكاره تتجه في غموض إلى خارج المكان، ولكنه كان مشوّشاً بسبب انشغاله! كان منشغلاً يهيئ نفسه لتفاهة القربى: سينظر الرجل إليه لحظة، ثم يدهش، ويرفع حاجبيه، ويصافحه ويتكلمون، هو ويوسف والمرأة. وكان قد أمضى النهار يقتل الذباب بمضرب ذي قبضة زرقاء، وكان ينظر إلى الذبابة وهي مخمورة، ثم وهي تسقط وتجمد. وقد ارتفع إلى حنجرته بشدة، حيوان دقيق من الأمعاء عندما ضرب ذبابة فتعلقت بذراع الكرسي أحشاؤها القذرة التافهة، وضربها في جنون حتى ضاعت. وكان يتماسك ويواجه القيء. وبعد ذلك قام بالحركات اليومية التي تتأتى في العصر دائماً: إغتسل، ومشط، وخرج. وكان يفكر بأنّ الغسق الوردي عاصفة غبار. وقد اشترى أيضاً فستقاً

Twitter: @ketab_n

بعشرة فلوس، من زنجي بنفسجي ذي بنطلون أصفر. كما لاحظ أن تنورة امرأة قد انفتح شقها الأسفل الذي في وسط الركبتين أكثر من اللازم، وكانت الخياطة مفكوكة تبدو بوضوح، وكانت الساقان على شكل فستقتين خرافيتين، والردفان غامضين يضلعان في بعضهما ويتكتلان. وسار خلف المرأة مسافة مناسبة حتى أبطأت فمرّ بها فنظرت إليه بأجفان مبتلة رخوة: كانت شفتاها ترغوان بالصبغ الحار.

وفكر يوسف بأن يذهب. وكان الرجل قد أخرج سيكارة فأشعلها، وكانا لا يزالان يتفرجان، وكان في وجه الرجل انطباع غليظ كقطعة آسِنة من العشب المشبوك، ولم يكن يتعجل شيئاً، وكان قريباً ليوسف، من جهة ما، وكان بالغ الزيف والتأدب. ولكنه كان مزعجاً إلى حد حيواني عندما يتكلف أنه شاب، كلما جالسه. وفكر يوسف بهذا فشعر بإحساس الهرب يتشعر!!! داخل عنقه ويصبح كالإسفنج. ووضع يده على الحائط البارد وقد أدار رأسه تماماً عن الرجل. كان الرجل يتجول بهيئة ملولة تافهة كأنه في دكان يشتريه. وفكر يوسف: لن يقطع البطاقتين إلا بعد أن يقتل المسألة تأمّلاً. وكان يعرف تعبير الرجل جيداً، تعبير الرجل الذي يردُّ قائلاً، في فظاظة عالية: إنني أعرق لأحصل على نقودي، ولستُ جالساً على قاصة أموال. ويكون باسماً أيضاً في نذالة متدينة، ويضيف أنّ من حقه أن يفحص الفلم قبل أن يلقي بنقوده. وهو يعتقد أنه بالفعل نموذج لشاب مثل يوسف. ولسوف يقول هذا، ويقول أيضاً أشياء أخرى بخصوص الفشل، وكل هذا موجّه ليوسف بالطبع، ولكن تحت الابتسام الذي يرشّه الموظفون على وجوههم.

Twitter: @ketab_n

وأدرك بفظاعة أنه سيخسر المساء، ولكنه فكر: على كل حال، كالأيام الأخرى. وكان حين يفهم أنه يغوص في فراغ غباري، وأنه يقتل الزمن بسرعة يائسة مملّة، يدرك كل شيء فجأة، ويشعر بأنه يتساقط إلى قعر جاف من السادية والغموض وأنه، خلال تساقطه نفسه، يتكصّف ويعانقه غطاء من الكلس العفن لا يلبث ان يتصلّب حوله.

كانت الشمس في الهواء، وكانت هناك قارورة ضخمة من الشربت البارد وراءها بائع بدين. وتحرك من أمام الزجاجة ومر بالشبان المتسكعين في جانبه وبجماعة من الرجال ذوي عقالات على رؤوسهم كانوا يقررون إن كانوا سيدخلون، وكانوا قد جاؤوا من البادية ولا بد أن يجلسوا في سينما. ولم يره الرجل قريبه، وسرّه هذا. وشرب الشربت وهو يأمل قليلاً أن يخرج قريبه ويراه. وكان يحب أن يشم رائحة زوجة. وسوف يلذ له أن يتكلم مع زوجة الرجل، أن تسلم عليه على الأقل وأن تصافحه. وكان يمر في الشوارع، كل يوم، بعاطفة عمياء كبركة طين. وقد يئس من النساء فكان يفكر بأنهنَّ مخصوصات ومن المستحيل أن تلمس امرأة أو فتاة عذراء إلا إذا ذهبت إلى بيتها وعقدت مع أهلها اتفاقاً ما. وكان مشوّش الآراء عن كل شيء، وقد اختلطت لديه أفكاره عن النساء، فبقي على الحافة. وفكر: سيشاهدان الفلم ثم يخرجان. وغرضهما، بالطبع، هو أن يثيرا العاطفة الميتة فيهما. ونظر إلى المرأة. وتصوّرها رأساً وهي في الفراش مع زوجها الهزيل المقرف. وكان يذكر أنه قد اشتهاها عند رؤيته لها للمرة الأولى،

Twitter: @ketab_n

منذ شهور. وكان يفكر بها في حُمّى. وقد استمر ثلاثة أيام يفكر فيها، وكانت قد زارت أخته المتزوجة وبقيت لديها يوماً واحداً. وقد لبست في الظهيرة قميص النوم الصيفي وانحنت لتأكل فرأى نهديها الطليقين بوضوح يتدليان من المنامة العريضة. وقد أدركت هذا فرفعت إحدى يديها وأدخلت الثديين تحت القميص واصفرّ وجهها. ثم دخلت الحمّام ورأى ذراعها من نافذة الباب العالية، ورأى انعكاسات جسمها العاري من تحت الباب على الكاشي المبلل اللامع. وكانت تيارات برّاقة من الجنس تمرق في جسمه وتخلّف في جوفه شارعاً من النار. ونظر إليهما الآن من بعيد وكانا قد ابتعدا في قاعة السينما الخارجية التي يدخل إليها الناس ويخرجون مجاناً. وشغل نفسه بهما، وانفتحت حياتهما أمامه بكل أبعادها المزمنة كمطواة رخيصة تهرّأت من الصدأ. وكان الرجل يشتغل في دائرة. وكان يعود، وكان يتكلّف التعب الزائد على وجهه الجرذاني العائلي. ويخلع رباطه وقد يأتي ببطيخة صفراء في يده. ثم يأكل كما فعل قبل يوم. ويتكلم مع المرأة عن كل شيء بطريقة تميت الحيوية وتبعد اللذة بحتمية واضحة. وفكر يوسف: انهما ميتان، بصراحة. وكل ما يملكانه هو زاوية صغيرة وتافهة جداً قد يعرفان قيمتها حقاً وقد لا يعرفان، وهي أن ناما معاً، ولكن لماذا هذا القرف الضائع وهذه السفالة الإنسانية التي لا معنى لها ولا مظهر وكل ما هنالك أنهما يتضاجعان ولكن حتى هذا يقومان به على أنه مشكلة تنتظر الحل. وكانت التلميذات يَسِرْنَ على الرصيف، وكانت المدارس مقفلة والصيف طويلاً والثياب تنتشر كالأغاني على الأجساد الأنثوية. وكانت الفتيات وحيدات مع أنهنَّ

Twitter: @ketab_n

يَسِرْنَ مع بعض. ولحمهنَّ كلحم خوخة!!!. والشمس متكئة على رأس عمارة، كحيوان نهري مدوّر. والشوارع مغطاة بإسفلت تغطيه بقع رخوة من جلد الشمس. وتذكر بلا سبب نهاراً أصفر جداً، وكان يمشي مع تلميذ وكان هذا التلميذ لئيماً بصورة لا تُحتمل وطيباً جداً أيضاً، كان شاذاً كالفحم. وقد شتم يوسف أم الشمس فقال التلميذ عن الشمس إنها أصيبت بالإسهال. وتذكر يوسف الوجه ذا الأنف الطويل الميكروبي فأدرك أن ملامح التلميذ هازلة جداً.

نظر إلى الرجل أيضاً، وكان يقترب وزوجته إلى جانبه. واستعدَّ يوسف فوقف أمام الدكان وقدح الشربت في يده. ونشر على وجهه إفرازاً من الشرود والتأمل. وكان هذا ما يحدث دائماً كلما التقى بشخص يعرفه. وكان يفكر في داخله بأنه يخشاه بصورة غامضة. وكان يكرهه ويحس بالاحتقار كلما رآه. وقد تخيّل يوسف، في كل مرة، أنه يضربه في برود ضربات هادئة صلبة في بطنه. وكان يتخيل عينيه جاحظتين في حقارة عارية لم تعد تتقنّع. ولم يكن يدرك سبب هوسه هذا. ولكنه كان يستخرج من فم الرجل اعترافاً بكل شيء. وكان يوسف يضربه ضربات مفاجئة هائلة بقبضته إلى وجهه المفزوع، وكان الرجل يستسلم أخيراً دائماً وينهار وتنهار معه زوجته، وطبقته، ومواعيده، وشغله، وابتساماته وأصدقاؤه وشريكه وكل العالم الزائف الذي يتغذى من الدوائر، ويتصنّع، وينمو جيداً. وكان يرتاح بشكل غريب حين يتطور بجذور تفكيره إلى هذا الحد. وسرّه أن يفكر: إنني أعرف كل شيء عنه. ولم يعد أي شيء قادراً على أن يصمد أمام بصيرته وذكائه. وكان يراهما وهما يتضاجعان،

Twitter: @ketab_n

فيقهقه. إنني أعرف كل حركة، أيها الكلب. وكان يتخيل الرجل أمامه، يائساً ومنفوشاً من العذاب لأنَّ يوسف أمامه كالقدر، عارف، حكيم وشاب وغير ممكن أن يصبح عجوزاً في يوم من الأيام. وكان يفرغ بأن يعتقد أنه خالد جدياً. وكانت هذه حقيقة، لأنه كان يفكر هكذا، يتسلط كالشبح على الحياة كلها في المدينة المضلّعة. وكان قريبه وزوجته نموذجاً للسرور المخذول. وكان الجميع مثلهما، دونما أي شذوذ عن القاعدة، اللهم إلا الشبان النحاف مثله الذين يبصرون المذلّة الباكية في كل شارع، وفي السينما، والإعلانات، والوجوه، بغيظ. وكان يتغذى بهذا إلى أقصى حدٌ ممكن. وكان يعرف أنه مخبول وفائض عن الناس، ولكنّ أحداً لم يكن ليستطيع أن يجرؤ على أن يقول هذا في وجهه. وكانوا أوغاداً وتاعسين، كأشخاص السينما. وكانت حياتهم بالضبط دورة متقنة دقيقة نهايتها موت تافه. ولكنه كان سيموت أيضاً، ومع هذا فقد كان يعرف بأنه سيموت موتاً (حياً). وكان يشعر في جوفه بأنه كالح السحنة يدور في عاصفة صحراء. ودنا قريبه وهو يتكلم مع المرأة. ثم التفت فابتسم وسلّم على يوسف وقال: كيف الحال؟ وأبطأ قليلاً ثم استعاد خطواته برشاقة آسفة. وكانت المرأة قد نظرت إلى يوسف نظرة نشطة. وكانت النظرة السافلة المعروفة: تتوقع أن ترى شيئاً شاذاً في هيئته حتى تنتبه له، كزنبرك مثلاً يقفز من أذنه، العاهرة. ونظر وراءهما بغثيان، ولكنه كان يعلم أنه يلتهب وأن الغثيان شيء سطحي، وأنه سيزول. وكره نفسه. وفكر ضاحكاً: سأقتله. وانتشرت أفكاره المجنونة الاعتيادية في رأسه كالجرذان، وإنتقلت حتى أقصى صدغيه وآذانه. وشعر بأن

Twitter: @ketab_n

صفيحة جافة مليئة بالغبار تتقصف داخل بطنه، ولكن بصورة تدريجية لا يمكن أن تكون فيها مسحة آسية. ورآهما ينزلقان على الشارع، فوق طوفان أفكاره الدموي، تافهين، ضخمين كائنين من القرود، يغطيان هيكله لئلا يراه أي إنسان، أو يسمع صوته، أو يفهمه. . . وشعر بظلم طاغ. وكانا غير جديرين بأي شيء ولكنهما يحصلان على أشياء وفيرة، وكانا بليدين ولكن الناس يعجبون بهما، وكانا حيوانين. وكان يوسف يشعر بأنه رجل جاف ذو شعر أغبر مختبئ في ثقب قذر، مع الأسمال والعظام. وشم رائحة زبل. وكانت أفكاره قد تشوّشتْ، كطيور مذعورة. ومرّت به فتاة صاحية درست حركاتها جيداً قبل ان تخرج. وفكر: سيقع النذل في يدي ذات يوم. وتصوّر نفسه يعامل الرجل كقوّاد مقبوض عليه. وعادت إليه مشاهد الضرب. ولكنه صحا فجأة. صحا بقوة دنيئة فرأى نفسه كالبومة، صبيانياً وجامداً وغريباً جداً. وأدرك أنه وحيد بشكل هائل. ولم يكن يعمل. وكان صباحه كنهاره وليله. وكان يأكل ويشرب كالطفيلي في بيت أخته. وكان هذا مدمّراً، لأنه شعر بأن قسماً من جسمه يفرغ، كعلبة سردين قُلبت على جنبها. وتجوّل بخطوات راكدة تغوص وتخرج، تغوص وتخرج. ورأى الناس فوقه، على الجسر. ودخل من النفق الغامض الذي تحت الجسر، وخرج إلى الناحية الثانية حيث العوائل الفقيرة تجلس على العشب، والصعاليك، والعاهرات، والشيوخ والرجال العاطلون ذوو الثياب البالية. وكانوا يحدّقون في النهر ويتحدثون بثقة. وكان أمثال قريبه يمرقون في سيارات لامعة من الحديد البارد. وتخيلهم ذوي أجساد معاكسة للشفقة. وكانوا يمرون من الشارع والفقراء ينظرون إليهم

Twitter: @ketab_n

بحكمة. وكان الأطفال والنساء والرجال جميعاً جائعين جوعاً سخيفاً، وكان يشعر بنشوة داهمة تجاه كل إنسان مترف، فاقترب من النهر دون مبالاة. وكان في هذه الحالة يكفُّ عن التفكير. وكان يتحرك دون أي إهتمام، كأنه بلغ منطقة من الرمل البارد في دماغ الإنسان تشغله عن أية فكرة. ونظر إلى النهر، ومرَّ بعينيه على ظهور الأطفال القابعين على الشاطئ. وكان قاربان يتسابقان خلال الألسنة الخضر النحاسية التي تمدها الشمس على المياه. ولم ينظر إلى أبعد من القاربين، فلم ير الشاطئ الآخر، وظل فترة طويلة يرمق النهر. وحين سار مبتعداً وعاد إلى الرصيف كان يفكر في خبث بقريبه ويتصوَّره مع زوجته في وضع بالغ السفالة. وأعاد هذا كل مشاعره إلى نفسه من جديد. وفكر: سأتابع هذه. ونظر في ظهر الفتاة التي مرت أمامه بخطوات دقيقة طفولية، ثم نزل بعينيه إلى ردفيها وأبقاهما في البياض اللاهث الذي كان أعلى ركبتيها. وكان شقُّ تنوُّرتها يبعث بالغموض في دفعات، كأنه يغمز. ووصل إليها ومرَّ بها ونظر في وجهها. وكان فمها مغطى بصبغ وردي. وكان قد ألقى بنفسه ثانية في مشكلة وجوده أمام فتاة تنظر في ظهره. وارتبك بغرابة، ثم أسرع وهو يتكلَّف مشية رائقة. ولكنه كان كالهارب من نفسه، وكان في أنفه طعم السمك النيِّئ.

(كركوك، نشرت في الآداب اللبنانية، العدد الرابع، نيسان ١٩٦٥)

Twitter: @ketab_n

القنينة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ألقى قطعة الخشب من يده، ونهض وقال:

- السماء تبول كالكلب.

ثم سار ناحية رائحة البيرة، تركني لرائحة البيرة والبنزين والأرض. ترنّح، ثم وقف وقد استند على الباب المفتوح للسيارة. رأيت المرأة، ضاحكة، بيضاء. والرجل تجشأ ثم صعد إليها. ظل الباب مفتوحاً. لم أشأ أن أرى. ولكن لم يكن ثمة ملجأ.

صاح من مكانه: إذا أردت أن تجلس في السيارة، لا مانع.

وغطس في الصمت. رفع رأسه. لماذا لا يتركني؟

سمعته، كات يهمس للمرأة التي تضيء بالضحك:

- جالس في المطر، المخنّث.

ونصحني:

- ستبلل نفسك. المطر قذر، لن يكف. إشرب، على الأقل.

رائحة البيرة. لقد سكر، وسكرتُ، لا ليس من البيرة. والمرأة التي تعرّت، وكان الباب مفتوحاً، بياض في عتمة، وأنا تحت الصنوبرة لأن المطر كالسجن وليس من ملجأ، والرجل يبدو كالزنجي في عتمة النسيارة. بياض، لست أنظر، بياض واضح، وأسفل المرأة واضح، وهو لا يغلق الباب، ويهطل المطر المدبّب،

Twitter: @ketab_n

مطر خشن، والبيرة تملأ نصف القنينة. إقترب ثقيلاً، والمرأة لم تنهض. في السيارة، ظلت بيضاء: تدخن.

قال: لا تشرب؟ لا تدخن؟ إذا، لماذا جئت؟

صحتُ: لم أردْ أن آتي.

قال الرجل: ولكنَّكَ أتيتَ يا عزيزي.

فقلتُ بغضب: لَمْ يسألني أحدٌ إنْ كنتُ أريد.

فضحك: أنا، قريبك الشاطر، أردت أن تسعد قليلاً معي.

ضرب صدره. سكران، أنا أيضاً، والمرأة، رائحة البيرة والأرض.

وقال: إشرب، واضطجع تحت الصنوبرة، على مشمع السيارة المفروش فوق الأرض ورائحته بعطر المرأة، وهي راقدة لم تزل.

- إذهب إليها.

تجرّع، وألقى بالقنينة. قال بوجه مشمئزّ:

- لماذا لا تذهب؟

قلت ضاحكاً: لا أريد.

فصرخ: لا تضحك أيها الثور. لماذا جئت؟

وأعاد بضجر وحقد: هه، لماذا؟

أردت أن أقول شيئاً، المرأة، قلت الهوينا:

- المرأة أغرتني، فجئت.

- إذاً، فانهضْ.

وانتظر.

الرائحة. دوّختني أشكال الرائحة التي تقف في فراغ أنفي.

Twitter: @ketab_n

نهضتُ، وتدحرجتُ عليه. قلتُ صارخاً: أكرهُكَ أيُّها التافه.

فانفتل، ونهض، رفسني وأمسك بي، رفعني، هزّني من عنقي:

- أتخاف؟ سأعلّمك، تكرهني؟

وبدأ يصفعني. صراخه، كانت البيرة تضحك في صراخه. والمرأة تلاحظ بأسنان زجاجية في حمرة ملتاثة على دائرة فمها، وانكفأت فجأة، تركتني.

جلس بعد برهة، شرب وأخرج الثقاب من جيبه، وقال بجرأة:

- نحن مخموران. لنأكل.

وأشعل الخشب، فارتفع دخان أخضر. وهمس بشقاء:

- هذا البول لا يترك شيئا جافاً.

وأهدى إلي قوله:

- ألا تتسلى معها؟

فهمست: أكرهك، يا ابن عمي.

في وجهه المذعور الثقيل، في بول السماء، في الدخان، ضحكت

وتجشأت وإنتظرت أن تسقط الصنوبرة العارية وتدفن جثتي وجثته.

رفع صوته من المغطس الذي في بطنه، وقال:

- لأنني شقي، لأنني شقي.

فهمست: إبنك مات البارحة، لماذا جئت بالمرأة؟

فواجهني بزجاجتين تحت جبينه، وقال بلطف:

- أنت لا تفهم.

Twitter: @ketab_n

فصرخت: لا تحاول أن تتكلَّف.

ألقى الخشب والثقاب، وقال لي متهرّباً:

- قد تستطيع أن تشعل النار.

قلتُ: سأشعلك أيُّها الخرقة.

إرتمى عليّ فجأة، كأنما حملته الريح، ثقيلاً أجش الحنجرة:

- لا تزعجني، سأقتلك، لا تزعجني.

وصفعني، فلم أبتعد، وكفّ. طار فجأة إلى السيارة. سمعت صراخ المرأة، وجريت، أمسكت بذراعيه ودفعته على العشب الخريفي الرطب. وأعطيته القنينة، وقطعة خبز، وبيضة. وشرب ثم أكل، وحوّل بؤبؤيه إلى أعلى، نصفاهما ظاهران.

- إنني شقي. لماذا مات، لماذا؟

وأخذت القنينة، بيرة فاترة تزور أمعائي. رائحة الأرض والمطر، وصاح:

- أي فصل هذا؟

- خريف.

فأوضح: لا أعرف متى يتبدَّل كلُّ شيء، وكيف.

فقلت بهدوء: لماذا جئت بالمرأة؟

قال: إن كلَّ شيء زائغ.

وزمجر. دار كالنمر بسرعة، وانبثق أمامي:

- ألا تذهب إليها؟

ورمقني، لم يصل نظره إلى ما تحت جلدي. إنكفأ فجأة، خار إلى الأرض وأخفى وجهه. وقال:

- خريف، خريف آخر.

Twitter: @ketab_n

وإمتزج بالأرض، رائحة رجل ورائحة أرض. وقميصه أصبح جلداً آخر، في المطر الفاتر، ترطّب وتشبّث بجثته الطويلة، تحت الصنوبرة، ونحن ننتظر أن تنكفئ في البول وتخفي كل شيء، ورفع رأسه فجأة. أرهف أذنه، مغمضاً. كانت المرأة تغني، وكان الغسق، وقال: إنها حنونة جداً.

وأخذ يبكي.

(كركوك، نشرت في مجلة الآداب اللبنانية، العدد ١٢ ،
كانون الاول ١٩٦٤)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

رغبة حرة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

أخبرهم بأنَّ أسنانه تؤلمه، وخرج من الدائرة فسار تحت الشمس والناس يضربون كتفيه في مرورهم به وهم يتزاحمون على الأرصفة ويسرعون وبعض يصيح وآخرون يجرعون الشربت ويأكلون في شمس أواخر الصيف، وقد بدأ يخاف، منذ مدَّة، حين رأى نفسه يصمت ويبتسم ابتسامة شاحبة إذ أمره المدير بأن لا ينشغل بشيء ليس داخلاً في نطاق العمل. وكان يحاول أن يكتب شيئاً على ورقة، ولكنه لم يعاود ذلك مذ نهره المدير. ولقد أحسَّ بضياع واقفار وهو يفكر بأنه شاب عادي في قيمة ذبابة، ما دام لا يخرج عن نطاق الموظفين الآخرين الذين يعتبرهم آلات تافهة. ولكن الشمس كانت ساطعة وكان قد بلغ فم الجسر. ورأى مجموعة أشجار ترتعش أوراقها في هواء النهر المحشو برائحة الفلفل اليابس والسمك المقبور. وسار عبر الجسر وهو يجتاز المصابيح الطويلة واحداً إثر آخر. وكان ينظر إلى النهر وإلى القوارب اللاصقة بالشاطئ، يتصاعد منها دخان أخضر كان يبدو بنفسجياً في الشمس. وفكر تفكيراً لولبياً بأن حياته فارغة وجافة وأنه لا يستطيع، ببساطة، أن يفكر بأي شيء، غير الدائرة ذات الهواء الفاسد، والرجال ذوي الشوارب المشذبة والوجوه الورقية، والمدير

Twitter: @ketab_n

الأصلع الذي يخشاه لأن مستقبله بين يديه الضخمتين. إنه لا يستطيع أن يخرج مرة واحدة، لا يستطيع أن يحطم أصابع الدوامة التي تمسك بقلبه طول النهار والليل، طول الزمان، لا يستطيع إذا لم يفتعل منذ الصباح مظهراً مهملاً ويعتمد أن لا يمشط شعره جيداً وأن ترتخي شفتاه، وأن ينظر حواليه ببلاهة ومرض واستخذاء، إنه يخرج وقد تصنع المرض، وبذلك تكون الرغبة الحرة قد اختنقت وذبلت وجفت، وعندئذ لا يعود لها طعم ولا تعود فيها رائحة حرية. رغبة حرة. أنه يخنقها عندما يتظاهر بأنه مريض وأن أسنانه لم تهدأ طيلة الليلة الماضية وهي ما زالت تؤلمه بفظاعة. رغبة حرة، رغبة حرة.

كان قد اجتاز الجسر وتوقف على حافة الضفة ذات الأعشاب الرطبة. وكان قارب ذو نوافذ مكسورة وضلوع جرباء راسياً تحت الجسر مباشرة. وكانت فيه قمرة نشرت عليها ملابس وأكياس خشنة، كما كان الدخان ما زال يتصاعد من تنور من الطين المطبوخ كان رجل جالساً أمامه ينظر إلى آنية من الصفيح كانت فوق النار. رغبة حرة. وكان النهر بلون الطين البرتقالي، تطفو عليه زوارق صغيرة، قريباً من الشاطئ.

رأى رجلاً يخرج من قارب كبير ويقف في الشمس ناظراً إلى النهر العريض. ثم هبط الرجل صوب الأعشاب وسار قليلاً ففكّ قارباً ضيقاً من مكانه وجلس فيه. رغبة حرة. ورأى الرجل يفك عقاله وهو يسعل دون أن يضع يده على فمه، بل كان ذقنه ملاصقاً لتجويف عنقه وإحدى يديه تعدل مجدافاً. وحين أرخى الرجل عقاله

Twitter: @ketab_n

بدا أنه أسود. رغبة حرة، رغبة حرة. وسار نحو الأعشاب الرطبة وهو ينظر إلى الرجل الأسود محاولاً أن يجمع تفكيره في شيء واحد. شيء واحد، رغبة واحدة، رغبة فريدة، حرة.

وقبل أن يتحرك الأسود رفع وجهه إلى الشمس الساطعة فشعَّ جلده الزيتوني كالخشب المدهون، وصاح بالشاب إذ رآه ينتظر: -

هه، أتريد العبور؟

وكانت أسنانه قد تكشفت كقطع من الملح الجاف الأبيض. وتفل من قبضتيه وهو يدفن عنقه بين لوحي كتفيه العريضين. كان يرى الشاب ذا الملابس النظيفة يحاول أن ينزل من بين الأعشاب الرطبة دون أن يوسخ سرواله. وانحنى وقد أمسك بالمجدافين منتظراً أن يصعد الشاب إلى القارب. ورآه سائراً خلال العشب، ثم رآه يقفز على رمل الضفة الرطبة. وضحك الأسود وهو يحاول أن لا تكون ضحكته من الضخامة بحيث تزعج. ونظر وراءه في مجرى النهر المكشوف تحت الشمس، وجر المجدافين بكل قوته إلى صدره فانبثقا من الموج، تتدحرج على خشبهما النظيف سيول صغيرة من المياه. وسار الأسود بالزورق في صمت، ناظراً حواليه ومحاولاً أن لا يلاحظ وجود الشاب قدر الإمكان، وأن لا يسأله عن قصده أو عن أي شيء آخر. وكان اليوم من أيام الله المشمسة المباركة. وقد كان يحس بسترة الجيش السميكة تضايق إبطيه ولكنه كان راضياً عن كل شيء على أية حال. وجدف بهدوء وصمت تاركاً كتل الماء الرخوة تدفع الزورق دون أن يعبر به مباشرة قاطعاً عرض النهر. وبدأ يغني وكان قد ضاق بالصمت. ورمق الشاب من

Twitter: @ketab_n

ركن عينيه فرآه قابعاً متحجراً يحدق في المياه ويعبر بعينيه من فوق رأسه إلى كتل الأشجار البعيدة والمقاهي الفارغة تتراصف حتى الضفة الثانية من النهر.

فكَّرَ الرجلُ الأسود في إقتناع بأن ابنه سالم أيضاً لا بدَّ أن يلبس في يوم على هذا الشكل ويكون رجلاً بعد أن ينهي المدرسة ويشتغل ويجعل على شفتيه شارباً مزيناً ويحلق شَعره في دكان نظيف ويسير بسروال وسترة وحذاء مصبوغ. وفكر أيضاً بأنه من غير المعقول أن يعيش ابنه سالم حياته هو، بين القوارب والأسماك والمياه، ما دام يذهب إلى المدرسة وله كتب يقرأ فيها دائماً على ضوء الفانوس الذي يبقيه مشتعلاً حتى بعد أن ينام الجميع. ورمق الشاب ثانية بعد أن شعر ببعض الألفة تجاهه إذ فكر به أثناء تفكيره بسالم. وكان الشاب لا يعرف ما يفعل بيديه رغم أن وجهه كان شاحباً ومتأملاً وفيه شيء من الألم. وقال الرجل: -أتنزل هنا؟

فقال الشاب: -سأبقى.

ولم يلح الرجل. وجدف وهو لا يدرك مقصد الشاب تماماً. ولكن هذا لم يكن هاماً على أية حال. فلعله يريد العودة وكان يتسلى. وأرسى الزورق وترك المجدافين معلقين في الماء، ثم سار فوق الرمل الأصفر وهو يطبع فيه آثار حذائه الضخم ذي الرقبة. وكان ضباب الشمس الأصفر يخضُّه تلاعبُ المياه ذات اللون البرتقالي.

أحسَّ بأنَّ جفنيه مُجعَّدان ومحترقان عندما نظر إلى الضفة

Twitter: @ketab_n

العالية حيث كان الرجل الأسود. وكان لا يدري لِمَ هو جالس هنا، ولكنها كانت رغبة حرَّة، أن تعارض النهر الذي يجري في اتجاه واحد، وأن تجعل الأمواج المتشابهة تضطرب وتنطبع فيها دوائر جديدة عند مرور القارب. رغبة حرة أن تكون مع رجل أسود وأن لا تأتي له بأي سبب فيحملك معه دون أن يسألك شيئاً ويتحدث معك وهو لا يحس بغربة بل يعرف أنك إنسان وغير غريب، ولا شيء أكثر من هذا. رغبة حرَّة في أن تجلس، ليس على مقعد في غرفة تجبر على أن تجلس فيها يومياً، ولكن في زورق يتراقص في هدوء وأيدٍ رخوة من الماء تمسك به طافياً على وجه النهر. رغبة حرَّة، حرَّة. الشمس والماء الذي يبعث بأصوات هادئة ومريحة وجوف السماء الساطع والوجه الأسود والماء الذي يبلل جفنيه فيشعر بهما محترقين ومجعدين، والنهر والدائرة ومقاهي الضفاف، رغبة، رغبة، رغبة حرَّة.

أحسَّ بالقارب يرتجُّ، وكان الرجل الأسود قد وضع الحقيبة ذات الحزام والتي يخرج من فمها رأس مطرقة في الزورق، ثم صعد إليه ووضع يده على كتف الشاب، ولكنه رآه يفتح عينيه حالماً سقط ظله على وجهه. وقال الرجل وهو يضحك:

- هه، نمت؟ ألا تأكل قليلاً من التمر؟

وقدم له كيس ورق أسمر كانت فيه حفنة من التمر. وهز الكيس وهو يوميء برأسه ويلح:

- خُذْ، خُذْ، التمرُ يفيدك. طيب، أهه.

وأكل تمرة ولفظ النواة في النهر. وأعطى الكيس للشاب فرآه

Twitter: @ketab_n

يأكل تمرة. وجذف بحماس وهو يغني بصوت أليف كئيب. وأدار الزورق فواجهته الشمس الساطعة وهي تضيء خلف الشاب بقوة. وأكل الشاب تمرة أخرى ولفظ النواة في النهر. وفجأة أغمض عينيه وتقلص وجهه. نظر إليه الرجل حيناً، ثم لمح وجهه فقال وهو ما يزال يجدف: - ما بك يا إبني. أيؤلمك شيء؟

فسمعه يهمس: - أسناني.

فشعر بشفقة عليه. وقال: دقيقة، سنصل بعد دقيقة. لا تأكل تمراً بعد.

وجدف بقوة وهو يعارض التيار. وكانت حركات الزورق قد إشتدت والشاب يرتفع ويهبط، مغضن الوجه. وكان وجه الرجل معروقاً حين إصطدم الزورق بالقارب الكبير الراسي. وصعد الرجل إلى القارب ثم عاد وفي يده قبضة من الملح. وأعطاها للشاب قائلاً: - ضعها في السن. إنه سيهدأ.

ورأى الشاب يتناول الملح ويضعه في فمه ويده ترتعش. وإنتظر لحظة، ثم قال: هه. وانتظر. وبعد دقيقة تراخت ملامح الشاب وبصق على الرمل وقال باسماً: بدأ يهدأ.

ونظر إلى الرجل الذي أمامه نظرة راحة. وكان يحس بشعور عميق أنه أمام أبيه الذي أراده لنفسه دائماً، طيباً وأليفاً وخشناً في العمل. ولكن رحيماً وشاعراً دائماً. ونهض عن الزورق وناول كيس التمر للرجل. ثم سلم عليه وبدأ يرتقي الضفة الرملية حيث العشب.

وكان يرى الرجل حاملاً حقيبته الثقيلة على كتفه، فلاحظ لأول

Twitter: @ketab_n

مرة أنه مسنٌّ وأنَّ عظام وجهه بارزة. وفي عينيه الواسعتين طيبة تدفع إلى المرح. وقبل أن يبلغ قمة الضفة تماماً، توقف. ولوح له بيده. كان الجسر أمامه، يتفرع إلى طرقات عديدة.

(نُشرت في العاملون في النفط، لم نستطع تحديد رقم العدد وتاريخه)

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كلمة الناشر

منذ سنوات، كانت فكرة سركون بولص أن يصدر مجموعة قصصية تحت عنوان «ملك الآبار»، تلك القصة التي تدور أحداثها في كركوك، والتي لم يكتبها أبداً، لكنه كان دائم الحديث عنها، وكنا، سركون وأنا جمعنا بعض قصصه المتوفرة أصولها لديه، على أمل الحصول على القصص الأخرى التي نشرها على فترات متباعدة في المجلات والجرائد العراقية والعربية، على أن تتوّج بقصته التي لم يكتبها «ملك الآبار»، كما أنه فكّر أيضاً، أن يكون عنوان المجموعة باسم آخر قصة نشرها «عاصمة الأنفاس الأخيرة» (فراديس، العدد الثاني، ١٩٩٣، كولونيا - ألمانيا). وحينما تمت ترجمة بعض قصصه إلى الألمانية وصدرت تحت عنوان «غرفة مهجورة» عام ١٩٩٦ ببرلين[1]، وضمت خمسة قصص هي على التوالي:

١- غرفة مهجورة

---

(١) Sargon Boulus: Ein unbewohnter Raum, Erzaehlungen, aus dem Arabischen uebertragen von Suleman Taufiq, Verlag Edition Orient, Meerbusch 1996.

Twitter: @ketab_n

٢- الملجأ

٣- النور ضعيف في السادسة

٤- العلاقة

٥- عاصمة الأنفاس الأخيرة

وكما هو واضح فقد كانت هذه القصص جُزءاً مما كان متوفراً لدينا، لكن الأيام والسنوات تمر ونحن نحلم في انجاز هذا المشروع أو ذاك من مشاريع سركون بولص الكثيرة التي بقيت معلّقة، أو على النصف...

تضم هذه المجموعة ثماني عشرة قصة لسركون بولص، وقد تمَّ تبويبها في الكتاب حسب تاريخ النشر، مع ذكر تفاصيل النشر في آخر كل قصة، بالأحدث وفي الخاتمة القصة التي نُشرت في «العاملون في النفط» ولم نستطع تحديد تاريخ نشرها. ولا يفوتنا أن نذكر هنا بأنه ثمة نشرة أخرى لقصص سركون بولص قام بها السيد روبين بيت شمويل وصدرت عام ٢٠٠٩ بمدينة دهوك بالعراق، وقد ضمَّت أربع عشرة قصة، وقد عدنا إليها في بعض المواقع لإيضاح بعض السطور الساقطة من النسخ التي لديّ، رغم وجود بعض الأخطاء والنواقص فيها باعتراف السيد شمويل. والقصص التي عدنا إليها في هذه النشرة، هي مما نُشر في ملحق «جريدة الجمهورية» (قطار الصباح)؛ وقصة (يجوب المدن وهو ميت) المنشورة في السلسلة القصصية «القصة»، الجزء الثاني، السنة الأولى، مارت ١٩٦٨، بعقوبة.

نعتقد بأنه ثمة العديد من القصص المنشورة، أو التي بقيت في

Twitter: @ketab_n

نسختها الأولى ولم يحالفنا الحظ في الوصول إليها، على أمل، في حال العثور عليها، نشرها في طبعة لاحقة.

نأمل أن تكون هذه النشرة لقصص سركون بولص إضافة بسيطة واستكمالاً لصورته كقاص في الستينات من القرن الماضي ولأعماله التي ننشرها تباعاً.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

المحتويات

عاصمة الأنفاس الأخيرة ٥

وغمرتني اليقظة كالماء ٢٥

يجوب المُدن وهو ميت ٣٥

الحمامة والزنجي ٤٥

العُلبة والكُتلة ٥٥

عشاء متأخر ٦٧

الخط الممتد إلى هناك ٧٧

الحَافّة ٨٧

النورُ ضعيف في السادسة ١٠٣

في صباحٍ ما - هناك. ١١٥

الملجأ ١٢٩

قطار الصباح ١٣٧

غرفة مهجورة ١٤٧

الحفرة ١٥٩

Twitter: @ketab_n

العلاقة ١٦٧
الأيام الأخرى أيضاً ١٧٥
القنينة ١٨٥
رغبة حرة ١٩٣

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هذا الكتاب

كان يعرف أين، وفي أيّة مهمة. قضى تلك الليلة يهيم حول بيتها قرب كنيسة الآشوريين لعلّه يراها عندما تعود، ثم انتهى وراء السدّة التي كانت تنوس وراءها نجومٌ حاشدة كالعناقيد تتدلى في العراء الخالي حتى تكاد تمسُّ الأرض، حيث جلس على السكة الحديدية ودخن سيجارة.

ISBN 978-9933351595

9 789933 351595